Scanned by
Jamal Hatmal

الأسعد العيّاري

الدم
في النصوص المقدسة

المركز الثقافي العربي

الأسعد العنياري

الدم
في النصوص المقدسة

الأسعد العيّاري

الدم
في النصوص المقدسة

المركز الثقافي العربي

إهـــداء

أهدي لذاذة هذا التعب الفكري
إلى من غمرني بنعمة اليتم على صغري
إلى والدي
حمادي العبّاري رحمه الله
و
إلى التي يجري حبها في دمي مجرى النفس..
إليها طبعاً بثينة بشارة دربي.

الكتاب: الدم في النصوص المقدسة
تأليف: الأسعد العياري
الطبعة الأولى، 2014
عدد الصفحات: 208
القياس: 14 × 21

ISBN: 978-9953-68-720-9

الناشر: المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب
ص.ب: 4006 (سيدي) - 42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 303339 522 212+ - 307651 522 212+
فاكس: 305726 522 212+
Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان
ص.ب: 113/5158 - الحمراء - شارع جندارك - بناية المقدسي
هاتف: 750507 1 961+ - 352826 1 961+
فاكس: 343701 1 961+
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

جميع الحقوق محفوظة

مؤسسة مؤمنون بلا حدود
مؤسسة دراسات وأبحاث
www.mominoun.com

الرباط المدينة - ص.ب: 10596 - المملكة المغربية
هاتف: 730450 537 212+ - فاكس: 730408 537 212+
Email: info@mominoun.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن اتجاهات يتبناها المركز الثقافي العربي ومؤسسة مؤمنون بلا حدود.

إسداء شكر

أشكر أستاذي المشرف

حمادي المسعودي

شكراً كثيراً وجزيلاً على المساعدة والإرشاد والتوجيه

ليندلق هذا البحث مثل طير أو غمامة . . . فلولاه لذهبت

عذابات الفكر عبثاً أدراج الرياح.

مقدمـة

استهل الإنسان وجوده منذ البدء بسفك الدم إما استجابة لتنامي الفعل الإجرامي المشحون بمعاني الكراهية والحقد داخل الإنسان أو تقديمه في شكل قرابين وأضاحٍ للآلهة. فاستحالت صورة الدم من هذه الوجهة حيزاً مخصوصاً يكشف عن طبيعة أعماق السلوك البشري في علاقته بالآخر حتى وإن كان هذا الآخر هو الذات نفسها. وتكشف صورة الدم كذلك عن طبيعة العلاقة التي تجمع بين الإنسان والقوى الغيبية التي تطورت زمنياً لتتخذ في النهاية صورة الله.

وحين جاءت الأديان السماوية تباعاً (اليهودية والمسيحية والإسلام) إلى حياة الإنسان واستقرت عقيدة إيمانية جلبت معها أنماطاً من الوسائط التي أسهمت في استبدال ممارسات الإنسان الدموية بمحاكاة أفعال أخرى تضمن فكرة الخلاص من الموت وتمنح الإنسان في ظل إيمانه حقه في الوجود، فكان الدم من جهة الفدية أو من جهة التكفير عن الذنب أوضح الشواهد دلالة على العطاء الذي لا يمكن لمؤمن مهما كان انتسابه الإيماني أن يأتي إلى حضرة القداسة دون أن يكون قد سفك إما دماً بشرياً أو دماً حيوانياً ليُنال «البر والتقوى» والخلاص. ويرتد مفهوم الدم من درجة المفهوم الأساسي في حياتنا الاجتماعية إلى مصاف العادة التي ترتقي إلى مرتبة المعتقد بما هو

النصوص المقدسة لما يطرحه من أسئلة واستفهامات شائكة ومربكة ومحرجة أحياناً، ولعل أكثر هذه الإشكالات إرباكاً ما تعلق برمزية الدم في سياق طبيعة العلاقة الجامعة بين الإنسان من جهة والذات الإلهية من جهة أخرى. فهل كان لا بد من سفك الدماء لكي تستقيم العلاقة بين الطرفين خالصة؟ وما هي دلالات الدم في نسق علاقته بالمعتقد الإيماني الداعي إلى إراقة الدماء إما للتكفير عن الخطيئة وإما لاحتدام الصراع من أجل تحقيق حسن البقاء؟

وتجدر الإشارة في هذا المجال إلى جدة الموضوع المطروح وطرافته بالصياغة العلمية الحضارية التي تروم الاقتراب منها وملامستها بما أن الدم قد توفر في الدراسات العربية قديمها ومعاصرها مرتبطاً أساساً بأطروحات فقهية طغت عليها القراءة التفسيرية القائمة على حكمَي التحليل والتحريم، أو هي مقاربات تعالج موضوع الدم في اقترانه بظاهرتي العنف والجريمة من منظور نصي واحد إما في «التوراة» أو في «الإنجيل» أو في «القرآن». ولكننا في هذا البحث سنطرح موضوع الدم بالاعتماد على النصوص الدينية المقدسة وهو ما يستوجب النظر إلى هذه النصوص الثلاثة باعتبارها مصادر متباعدة زمنياً في أصل النشأة، ولكنها تنحدر من المشرب الإلهي نفسه وتتطلب مراعاة الفواصل التاريخية الفاصلة فيما بينها بثقلها الثقافي والحضاري دونما تغاضٍ عن خصوصية كل نص ديني يدعي النضج والاكتمال.

وقد يكون هذا الأمر إحدى الصعوبات التي تعترض مشروع بحثنا، ذلك أن التباين المعرفي والدلالي بين نصوص المدونة الثلاثة واختلاف بناها الداخلية مع تنوع طرائق توصيفها قد مثل صعوبة تطبيق

مفهوم متأصل في كل لحظة من حياة الإنسان. فمنذ فجر الحياة البشرية الموصوف بطفولة العقل الإنساني عجز الكائن البشري عن إدراك السنن المحددة لآفاق السيطرة على الطبيعة، وهو ما دفع الإنسان بداية إلى التضحية بنفسه محاولة منه استرضاء قوى الطبيعة وتجنب غضبها، ومع ولادة الحضارة الإنسانية برزت مظاهر العنف التي تطلبت قرابين بشرية في شكل ضحايا. وقد تكثف مفهوم الدم بما يحمله من إحالات شتى ورموز مختلفة من خلال حضوره في النصوص الدينية الثلاثة، «العهد القديم» و«العهد الجديد» والقرآن، بأشكال لغوية ودلالية متنوعة ومتباعدة فيما بينها بحسب الأنساق المعرفية التي وردت فيها. لذلك نروم من خلال هذا البحث معالجة موضوع الدم في النصوص المقدسة ناشدين تقديم إضافة علمية في مستوى طريقة المعالجة وفي مستوى نتائجها إذ إننا سندرس مستويات حضور الدم في نصوص ثلاثة تنتمي إلى مرجعية متعالية ولكنها في مراحل زمنية مختلفة.

وقد دفعنا إلى اختيار موضوع «الدم في النصوص المقدسة» حافزان رئيسان موضوعيان أولهما يتمثل في إحساسنا الفردي بأن النصوص المقدسة لا تزال في حاجة إلى القراءة وإعادة النظر والدراسة وأنها على قدر من الغموض والتعمية والتنوع يفتح آفاق البحث واسعة أمام مقاربات علمية ودراسات حضارية مغايرة تتعامل بكل موضوعية مع نصوص دينية ظلت محاطة بهيبة القداسة والتعالي وعصية على الفهم والتفسير، فكانت الرغبة ملحة في التوغل داخل هذه النصوص دونما تمجيد أو تهجين ومحاولة فك رموزها واستكناه ما تعسر من أسرارها وخفاياها. أما الدافع الثاني فيتمثل في أهمية موضوع الدم في

المسفوح على عتبات المقدّس من خلال إحالته على عنصرين أولهما الدم القربان، وسندرس فيه أنواع القرابين البشرية والحيوانية المدعومة بفعل سفك الدماء في النصوص الدينية الثلاثة، وسنقف على طبيعة العلاقة الجامعة بين الإنسان وإلهه في اليهودية والمسيحية والإسلام، وثانيهما الدم الختان حيث فصلنا الحديث في مفهومه ودلالاته الرمزية في الفكر الديني اليهودي والمسيحي والإسلامي وأنساق تحوّل مفهوم الختان من مقولة إيمانية إلى علامة صحية ليرتدّ إلى مصاف الأول شرطاً لاكتمال الإيمان.

وخصّصنا الفصل الثاني من البحث لدراسة ميثولوجيا الدم من خلال ثنائية القداسة والنجاسة، أما الدم المقدس أو الطاهر فقد عالجنا فيه إمكانات تحقّق الخلاص والنجاة بمجرد قطرة دم وتحصيل التقوى في المعتقد والإخلاص للبعد اللاهوتي بما يضمن الفوز بالوعد الإلهي أو بمجرد الإقرار بنيّة الموت والشهادة في سبيل الله، وأما الدم النجس فنظرنا إليه من زاوية الجريمة التي يقترفها الإنسان في حق أخيه الإنسان وفي استعادة قصة الجريمة الأولى في التاريخ البشري وموقف الأديان الثلاثة من الدم المسفوك جريمة بغير حق، ثم من زاوية الدماء الخاصة بالنساء وهي الحيض والاستحاضة والنفاس وانفاق الشرائع السماوية في نجاسة هذه الأنواع من الدماء رغم اختلافها في بعض التشريعات الفقهية.

أما الفصل الثالث من البحث فقد خصّصناه للنظر في المحمولات الرمزية للدم في النصوص المقدسة عبر دراسة رمزية الصورة الدموية للذات الإلهية في الرسالات السماوية من جهة وللذات الإنسانية المختزلة لمقولة الشعب من جهة أخرى، وكذلك عبر دراسة الحضور

منهج علمي واحد عليها، وهو ما يقتضي تخير الأدوات المنهجية الملائمة للتعامل مع كل نص ديني على حدة. وتواجهنا صعوبة أخرى تتمثل في ندرة المراجع باللغة العربية، ومرد هذه الصعوبة إلى بكارة الموضوع وجدته إذ لا يزال يحافظ على غموضه وطرافته، وهو ما دفعنا إلى الاعتماد أكثر على المراجع الأجنبية باللغتين الفرنسية والإنجليزية لتحليل الأبعاد الرمزية لصورة الدم وكيفيات انتظامها داخل النص المقدس، وهو ما أجبرنا على تكثيف الجهد لتعريب هذه المراجع الأجنبية واحترام أبنيتها الفنية الشكلية والمعنوية، واعترضتنا صعوبة أخرى تتعلق بمنهجية البحث الذي يروم الموضوعية دونما تمجيد لنص ديني أو استهانة بنص ديني آخر، فنحن نقارب الموضوع ونحن نعلم يقيناً منذ البداية أننا نتعامل مع نصوص لها تاريخها، وتقع كلها في منطقة القداسة والتعالي دون تمييز أو مفاضلة وإنما بأسلوب تتعاظم فيه المقاربة بضوابط الدراسة المقارنة.

ولما كانت غايتنا من هذا البحث تبين إشكالية مفهوم الدم في النصوص المقدسة ورمزيته لا إنجاز تطبيق نموذجي لمنهج علمي بعينه على نصوص تنتمي إلى نوع مخصوص من الكتب المقدسة فإننا ننتصر أكثر إلى مناهج البحوث الأنثروبولوجية مؤمنين بأن لا حياة للنص المقدس إلا داخل فعل القراءة والدراسة والتمحيص، وهو فعل ينطلق من سلطة النص ويراوح بين الأدوات الممكنة لتفجير الدلالات وتوليد الرموز والأبعاد لأننا نحاول في هذه المقاربة الإنصات إلى النص واستنطاق مدلولاته.

ولمّا كان عنوان البحث «الدم في النصوص المقدسة» ارتأينا تقسيمه إلى ثلاثة فصول، خصّصنا الفصل الأول للبحث في الدم

المتقادم تاريخياً للدم في بعض الأساطير والعقائد الدينية القديمة وكيفيات انتقال بعض هذه الصور إلى نصوص الكتب السماوية في إطار اشتغالها على إنجاز مفاهيمها المعرفية ومضامينها الدينية ليستحيل الدم حضارة متفكّرة في سياقاتها الأسطورية الفكرية وفي أنساق العجيب والغريب، وهو ما أكسب آيات الدم قدرة على توليد المفهوم، وفتح مسالك التأويل بدرجات متفاوتة بين نصّ ديني وآخر بما فيه من طاقات رمزية تنحرف بالمفهوم عن مسار العادة والمعقول، وتنحو به منحى المعتقد والممكن دينياً على وجه المجاز لتستقر مقولة العنف في النصوص المقدسة للمدونة المعتمدة جوهر حقيقة الله والإنسان المصنوع على صورته.

وقد كان لا بد من أن نشير إلى طبيعة المصادر المعتمدة في بحثنا والمتعلقة بالنصوص الدينية الثلاثة باعتبارها مقدّسة وملغّزة تنتمي من جهة الأصول إلى العالم العلوي والمفارق، فـ«العهد القديم» كتاب الديانة اليهودية يزخر بالعديد من الإشارات الدالة على صورة الدم في أشكال مختلفة مثل القرابين وذبيحة الخطية وطقوس الذبح ورشّ الدماء واستنزافها، وسنتعامل مع كتاب «العهد القديم» بجميع أسفاره، أما القسم الثاني من الكتاب المقدس وهو كتاب «العهد الجديد» بأناجيله الأربعة وأعمال الرُّسل والرسائل العامة فإن صورة الدم في هذه النصوص المسيحية تظلّ متفكرة في انسياقها بانبثاقها من اعتراف الكنيسة بالروابط التأويلية القائمة على القول، بوحدة ثنائية اللاهوت والناسوت على غرار توحّد ثنائية الخبز والخمر الدالة على ثنائية الجسد والدم، فكل مَن أكل هذا الخبز وشرب من هذا الخمر استحال هذا الخبز إلى لحم المسيح وجسده والخمر إلى دمه ليحصل امتزاج

بين الأكل وتعاليم المسيح ومرموزاتها. أما المصدر الثالث فهو النص القرآني الذي استخدم مفهوم الدم في مواطن نصّية عديدة لآيات متعددة توزّعت على سور القرآن، وبدور سياق حضوره بتصريفاته اللغوية المختلفة حول عدد من المعاني يمكن تكثيفها في سعي الآي القرآني إلى التركيز على إبراز حُرمة الدم بكثافة أشكاله وأنواعه سواء كان بشرياً أو حيوانياً أو كان سفكاً أو سفحاً أو تناولاً دون أن نغفل عن الإشارة إلى صورة الدم في سياق عمليّتي الختان والأضحية، وهو ما يمنح بحثنا خصوصية النظر في صورة الدم من جهة المقدس الطاهر ومن جهة الرجس النجس.

وتتضح أهمية البحث في الدم في النصوص المقدسة من خلال كثافة حضور هذا المفهوم ذلك أن كلمة الدم قد ورد ذكرها بمختلف تصريفاتها اللغوية في الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد سبعاً وعشرين ومائتي (227) مرة، وذلك في تسع وتسعين ومائة (199) آية، وتحديداً جاء ذكر كلمة الدم ومشتقاتها اللغوية تسعاً وثلاثين ومائة (139) مرة في «العهد القديم» في إحدى وعشرين ومائة (121) آية، بينما ذكرت في «العهد الجديد» ثماني وثمانين (88) مرة في ثمانٍ وسبعين (78) آية، أمّا في النص القرآني فقد جاء ذكر كلمة الدم بتصريفاتها اللغوية إحدى عشرة (11) مرة في إحدى عشرة (11) آية بمعدل مرة واحدة في كل آية، وتشير هذه الدراسة الإحصائية إلى أنّ كل مرة ذكرت فيها كلمة الدم في القرآن يقابلها سبع مرات في «العهد الجديد» والنتي عشرة مرة ونصفاً في «العهد القديم»، وهي أرقام إحصائية تمنحنا الكثير من الدلالات التي نستفيد منها بتوظيفها في هذا البحث.

الفصل الأول

الدم المسفوح على عتبات المقدس

تصدير

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾

الكوثر 108: 1-2.

ونحن على يقين منذ البدء أنّ ما نطرحه من قضايا وإشكالات في هذا البحث الذي يروم إنجاز إضافة في مجال دراسة النصوص المقدسة لن يكون سوى جزء ضئيل وبسيط من مشروع حضاري علمي متكامل لا بد أن يتأسّس على مناطق أخرى لقراءات أخرى يقتضيها ثراء النصوص الدينية التي نحن بصددها وعذريتها رغم ما كتب عنها وهو كثير بما هي نصوص طال عليها الأمد، فتقويت واستقرت مصادر متعالية تقف على أرضها الصلبة لنسألها بعدما امتلكنا حقّ التفكير في المقدّس الآخر.

مقدمة الفصل

تُعتبر ظاهرة سفك الدماء على عتبات المقدس سلوكاً بشرياً رافق حياة جميع الشعوب في مختلف الأزمنة والعصور، واقترن فعل سفك الدماء بالحديث عن معنى التقرُّب إلى الآلهة بقربانٍ إمّا بشري وإمّا حيواني، وقد تمكّن العقل البشري منذ القديم من إيجاد ممارسة عقائدية تمنحه الرعاية والحماية من خلال اقترانه لفعل إراقة الدماء الذي يكفل له تيسير أعماله وطرد الشؤم وتذليل المصاعب وتخفيف الشدائد، فاحتلّ سفك الدماء واجباً دينياً مقدساً ومفروضاً يُسهم في تقوية العلاقة بين الإنسان والقوى العلوية الخارقة للقدرة الإنسانية، واستحالت العلاقة الجامعة بين الطرفين علاقة دموية قائمة على سلطة الدم التي صارت تحدّد تبعية المؤمن العابد للرب المعبود. وسنعرض في هذا الفصل مختلف الطقوس الدينية التي شاعت في الديانات التوحيدية اليهودية والمسيحية والإسلام والتي فيها اكتسب مفهوم الدم قيمة رمزية عبر اقترانه بمفهوم القربان من جهة وبمفهوم الختان من جهة أخرى.

وقد حاولنا في هذا الفصل الأول من البحث أن ننظر في مرحلة أولى في الدم المسفوك على عتبات الذات المتعالية بما هو قربان يتقرّب به المؤمن إلى ربه طمعاً في المغفرة أو تكفيراً عن خطاياه، إمّا

بدم بشري وإمّا بدم حيواني، باعتبار أن تاريخ القرابين البشرية أسبق من القرابين الحيوانية، وفي مرحلة ثانية خصّصنا النظر في دم الختان في الأديان الكتابية بحسب مقياس العصر والتاريخ وما أنتجته هذه النصوص المقدسة من إشارات دالة على جدوى الدم في استكمال شروط الإيمان والطهارة والتطهر من الذنوب حتى لكأنّ الدم المسفوك على عتبات المطلق المتعالي إنما يتحيز شرطاً من شروط الاستجابة للتشريع السماوي ويندرج أمراً إلهياً مقدساً لا تستقيم عقيدة المؤمن الإيمانية إلا به. فهل كان دم القربان خصيصة جامعة لكلّ الأديان الكتابية أو هي اقتصرت على بعض منها دون الأخرى؟ وكيف تحولت عملية الختان الدموي من ممارسة إلى عادة بشرية محمولة على ركن في العبادة وعلامة عهد رباني يفصح عن العلاقة الجدلية القائمة بين العابد والمعبود؟

1- الدم القربان

لمّا كانت عقلية الإنسان القديم تقوم على فهم مخصوص للظواهر يخضع للإدراك الحسي والمادي ظهرت رغبة المتدين في التقرب من آلهته والانحناء لسلطتها عبر القرابين الدموية، وقد كان ممّا أُثِرَ عن الجاهليين تعظيمهم للكعبة بالدم عبر ذبائح تجسّد معنى الإخلاص في التديّن من ذلك أنهم كانوا يريقون دم الضحية على الأنصاب وهي موضوعة ويمسحون بها الكعبة[1]، وتعريف القربان

(1) للتوسع انظر جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط 2، ج 3، الفصل السابع والستون، «الآلهة والتقرب إليها».

يقتضي العودة إلى أصل إيتيمولوجي ينحدر من جذر [ق، ر، ب] الدال على معنى القرب والتقرّب، واختصّ استعمال هذا المدلول للدلالة على التقرّب إلى الآلهة «والقرب نقيض البُعد، قرب الشيء بالضم يقرُب قرباً وقرباناً أي دنا فهو قريب الواحد والاثنان والجميع في ذلك سواء»[1]. وإن أكثر القرابين قيمة ورمزية هي الذبائح التي تُراق دماؤها خلال طقوس دينية أو سحرية في مناسبات مختلفة بهدف التودُّد إلى الآلهة «اتحايلاً عليها ودرءاً لغضبها أو زلزلتها»[2]. ويعود أوّل قربان دموي منذ نشأة الخلق إلى ابني آدم قابيل وهابيل ثم تطور هذا الطقس الديني ليصير مطلباً إلهياً دفع بنوح إلى أن يبني مذبحاً قرب لله فيه الكثير من الحيوانات التي كان يتم حرقها على المذبح، وكانت «الشعوب تذبح على الأماكن العالية المخصصة وتحرق البخور»[3]، وإن في هذه الشعائر والطقوس تأكيد اعتراف الشعوب بعجزها أمام آلهة إليها الرجعى في كلّ ما يحتويه الكون، «مثل الحياة، الملك لله وحده ويكون نصيبه الخاص من الذبائح»[4].

وظلّ مفهوم الدم في المؤسسة الدينية التي أنشأها موسى يعبّر عن مجموع الطقوس والشعائر التي تضبط العلاقة بالإله، وقد استغرقت طقوس الذبح ورشّ الدم وما يرافق هذه الطقوس من شعائر قسماً كبيراً

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، مادة : (قرب).

(2) سيد محمود القمني، الأسطورة والتراث، سينا للنشر، القاهرة، ط 1، 1993، ص 77.

(3) سيغموند فرويد، الطوطم والتابو، تعريب بوعلي ياسين، دار الحوار للنشر، سورية، ط 1، 1983، ص ص 60-61.

(4) معجم اللاهوت الكتابي، مادة: (دم).

من الكتاب المقدس للعهد القديم، وفي هذا السياق «أراد موسى من الديانة التي وضعها أن تكون رابطة اجتماعية تؤلف قلوب جماعته وتنظم سلوكهم، وأمل من الطقوس والفرائض التي ألحقها بها أن يكون لها أثرها الاجتماعي في توثيق العرى وشدّ الأواصر»[1]. فحظيت الذبائح بمكانة بارزة في حياة الشعب الإسرائيلي حتى لكأنّ حياتهم لا يمكن أن تستقيم دينياً دون سفك دم بشري، والمتأمل في الأسفار الخمسة الأولى من «العهد القديم» ما ينفك يقف على حضور مكثف للحديث عن الأضاحي وإراقة الدماء امتناناً من الإسرائيليين للإله الذي أمّن لهم النجاة والسلامة.

ويُعتبر القربان المقدّس من أبرز ركائز المسيحية من خلال الإيمان بنظرية استدعاء حلول الروح القدس على القربين، إذ يستحيل الخبز والخمر إحالة سرية على جسد المسيح ودمه المقدّسين، ذلك أن الخبز يتحوّل إلى لحم وينحوّل الخمر إلى دم «جَسَدِي مَأْكَلٌ حَق وَدَمِي مَشْرَبٌ حَق، مَنْ يَأْكُلُ جَسَدِي وَيَشْرَبُ دَمِي، يَثْبُتُ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ»[2]. والدم من هذه الوجهة ينتزل في سياق التكفير أو الفدية بما هو دفع الثمن اللازم المترتب على دين الخطيئة أمام الذات المطلقة، ولأن أجرة الخطيئة هي الموت فلا يمكن لخاطئ أن يأتي إلى حضرة الإله الكامل القداسة إلا بدفع الثمن وتحمّل المسؤولية في العقوبة، وهذا بالضبط ما يفعله الدم حسبما هو مذكور في «سفر اللاويين»[3].

---

(1) جرجي كنعان، تاريخ يهود، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط 2، 1994، ص 162.

(2) يوحنا 6: 56-57.

(3) انظر سفر اللاويين 17-11.

ونجد أيضاً حقيقة كامنة في «العهد الجديد» تمثلت بتقديم جسد يسوع المسيح على خشبة الصليب ودمه الذي سُفك من أجل آثام البشرية إذ قدّم نفسه قرباناً من أجل رعاياه وإلى الأبد، ولذلك فهو الوسيط الوحيد بين الإله والناس، وبواسطته نال أتباعه المصالحة مع إلههم، وأصبحت لهم الثقة بالدخول إلى محضر الأب بدمه طريقاً كرّسه لهم بجسده، فأمام الله كل الناس دون استثناء خطّاؤون وبحاجة إلى التكفير عن ذنوبهم.

ويحفل النص القرآني بدلالة الدم المسفوح على عتبات المقدس، فأينما ولّيت وجهك هناك دم مسفوح للأضحية والختان، وهناك دم مسفوح أثناء الحياة وأثناء مفارقة الحياة، حتى لكأنّ الدم في سيلانه يستحيل عنصراً بارزاً لإدراك البركة والتزكية، فحافظ الدم على مركزيته وفاعليته في الضمير الإسلامي، وقد تكون هذه الفاعلية مستمدّة على سبيل الإحياء لما ساد الشعوب البدائية أو مجتمعات الديانات الوضعية أو الكتابية القديمة حتى صار سفك الدم عقداً مبرماً بين الإنسان وخالقه في الإسلام وإن بأشكالٍ جماعية أو فردية[1]. فمن أين استقت عقيدة الإسلام طقس إراقة الدم قرباناً للإله؟ وما هي الأشكال التي نصّ عليها آي «القرآن» في إراقة الدم تقرباً من الله؟

لقد تحيّز الدم شرطاً من شروط إمكان فعل العبادة وممارسة طقوس التعبُّد كأن يكون فعل إراقة الدم وسفكه تقرُّباً من الإله ضرباً من ضروب أداء مناسك الصلاة أو الصيام أو الحج عند المسلمين أو هو ضرب من تعظيم الإله الرب عند اليهود أو هو اعتراف بالوعي

(1) انظر سورة الكوثر 108 : 1-2.

طلبه، وقد مثّلت رؤية النبي إبراهيم في النصّين المقدسين «التوراة» و«القرآن» إعلاناً ربانياً عن توق الإله إلى قربان بشري يتلذّذ برائحة دمه فيرضى، غير أن التجربة الروحية التي عاشها «إبراهيم» القرآن و«أبرام» التوراة وإن اختلفت من جهة السبيل المؤدّي إلى معرفة الله، فإنّ هذه التجربة قد وحّدت بينهما من حيث إنهما اشتركا في الأمر الصادر من الإله والداعي إلى تقديم الابن قرباناً، ولعلّ هذا الطقس الديني الذي تأصّل في نسق صياغة الديانة اليهودية يرتدّ في أصل نشأته إلى عبادات وثنية سابقة، ذلك أن الطقوس المادية اليهودية من مثل الذبائح البشرية وأساليب التطهير قد استقاها العبرانيون من ظهورهم على مسرح التاريخ في وسط عالم تشبّع بالثقافة البابلية المستقاة من شريعة حمورابي[1]، فما هي الدواعي التي ألحّت على إله إبراهيم أن يشتهي دماً بشرياً مسفوكاً على عتباته المقدسة؟ هل في هذا المطلب الرباني تكفير عن ذنب وطلب للغفران؟ أم هو الدين اقتضى هذا القربان لتأسيس حقائق جوهرية تتصل باستكمال الشريعة وإتمامها، فكان لا بد من دم الابن كي تكتمل الشريعة؟

لقد مثلت ظاهرة القرابين البشرية أسّاً من أسس الأدلة التاريخية الدالة على تفكّر الأديان التوحيدية في نسق جريانها لاستعادة بعض الطقوس والمعتقدات التي شاعت بين عبدة الأوثان قديماً بما أن محورها الأساس كان يقوم على تسليم النفس البشرية لقوى الشرّ، بحيث تقوم الذبيحة بتجسيد رباط الدم الأبدي بين الإنسان والشيطان،

---

(1) للتوسع انظر حبيب سعيد، أديان العالم، دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية، القاهرة، د. ت، ص 176.

الكامل بحقيقة الخلاص والتضحية في المسيحية، فهل يكون الدم مفهوماً ملتبساً بطقوس العبادة التي تجعل للحياة الإنسانية قيمة ومعنى؟ رغم وجود اختلاف بيّن وكبير في مفهوم العبادة بين الديانات التوحيدية الثلاث نلاحظ فيها انفراد الإسلام بإطلاق معنى العبادة من عقاله الذي قيّده به رجال الكنيسة في الكنائس والكهنة في المعابد، حين أخرج هذا المعنى من قصور حصرها في العبادات الشرعية وفتحها لتشمل أعمال الإنسان كافة شرط أن تكون خالصة لله ومجتنبة للحرام[1]، فما الذي جعل الإنسان يُقدِم على قتل أخيه الإنسان بقصد إحداث أشكال دينية؟ وهل الذات المتعالية كانت بحاجة إلى سفك الدماء البشرية والحيوانية كي ترضى وتهدأ أو كي يشعر الكائن البشري بالطمأنينة والسلام؟

أ- الدم البشري

مع بداية فجر الحياة البشرية وطفولة العقل الإنساني عجز البشر عن إدراك السُّنن والقوانين المنظمة للكون وآفاقه، فسيطر على الإنسان الخوف من الطبيعة، فاضطر إلى محاولة استرضائها بالتضحية بذبيحة بشرية تكفيراً عن الذنوب ومحواً للخطايا، فاستحال الدم البشري المسفوك قرباناً وذبيحة تشريعاً لحضارة الدم التي تضحي بالإنسان، وتوصل إليها الإنسان شعيرة دينية درءاً للشرّ وطمعاً في رضى الإله، حتى لكأنّ الحياة لا تستقيم في حضرة المعبود إلا بإراقة الدماء وسفكها على عتباته المقدّسة، فصار الدم مطلباً إلهياً يصرّ الإله على

---

(1) للتوسع انظر مصطفى حلمي، الإسلام والأديان، دراسة مقارنة، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، د. ت، ص 41.

لها، فموقف «القرآن» من سفك الدم قرباناً مقدّماً لله يتّسم بالضبابية، إذ باستثناء قصة قربان الرؤيا الإبراهيمية لا نعثر في القرآن على دعوة صريحة التعبير عن سفك الدم أو الذبح أو ما حفّ بهذا الفعل إلا في سورة «الكوثر» ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾[1]. وقد ورد الخطاب في هذه السورة القرآنية موجّهاً أساساً إلى رسول الإسلام تحديداً، ومضمون الخطاب تشريعٌ يُلزم جميع المسلمين، وقد حافظ الإسلام على عادة طقس سفك الدم تقرّباً إلى الله، وهو طقس ديني ترتدّ أصوله في الديانات الكتابية إلى مرجع نظر يهودي، وسنحاول في هذا القسم من البحث إبراز خصوصية نصوص المدونة في التعامل مع مسألة القرابين الدموية البشرية، وهي مسألة محمّلة بالكثير من الرؤى المتباينة والمنسجمة تكثّف الجهد في سعينا إلى ملامستها والاقتراب منها.

لقد قامت اليهودية على محرّك أساسي مردّه إلى الشعور الحادّ في اعتقاد بني إسرائيل بأنهم وضعوا في قلب مأساة التاريخ، فكان لزاماً عليهم التودّد إلى الإله وإقامة علاقات حميمة معه لاتّقاء شرّه والاستقواء به وبسلطته. فمثّل الدم المسفوح على عتبات «يهوه» لحظة اعتراف يهودي بحاجتهم إلى ابتغاء مرضاة إلههم الذي افتتح سجل مطالبه بذبيحة دموية أعلنها حين اتّصل بهم في مصر بعد غربة شرّدتهم في صحراء الأرض مدة ثلاثين وأربعمائة سنة. فكان معنى التقرّب إلى الربّ بواسطة القرابين الدموية في الحدث الإبراهيمي الذي استقر في

---

(1) الكوثر 108: 1-2.

فاستحالت العلاقة الجامعة بين الإنسان وربه ضرباً من ضروب التودُّد والتقرُّب بشتى الوسائل المعبِّرة عن الطاعة وتقديم ضروب الولاء، فاحتلت القرابين البشرية جزءاً مهماً من عبادة الأمم القديمة، فبها يقدِّم الإنسان ذبائح بشرية إلى آلهته تقرُّباً وزلفى، فعند الجاهليين تذكُر بعض المراجع أن أهل «دومة» كانوا يذبحون في كلّ سنة إنساناً عند قدم الصنم تقرُّباً إليه، وأنّ من عادة بعض القبائل تقديم من يقع أسيراً في أيديهم إلى الآلهة ضحية لها تذبح وقت طلوعها.

هكذا تجلّت القرابين البشرية طقساً دينياً يكشف عن طبيعة علاقة بين الإنسان وربّه مخصوصة ومعبّرة عن إمكانات استغلال دم الإنسان تعبيراً مادياً وحسياً يفضح رغبة المتديِّن في استمالة الآلهة إمّا لدفع الضرر وإمّا للطمع في هبة وإما تطهير النفس من الذنوب، ولم تخرج الكتب المقدسة عن هذه العادة التي سجلت حضورها في الديانات التوحيدية الثلاث بداية من رغبة أبرام في سفك دم ابنه مُحيلة إحالة مباشرة وصريحة على طقس ديني كان يتردَّد في مختلف ديانات الأمم القديمة واستعادته نصوص «العهد القديم» «خَصِّصْ لِي كُل بِكْرٍ ذَكَرٍ، كُل فَاتِحِ رَحِمٍ مِنْ بَنِي إسرائيل هُوَلِي»[1] وتردَّد صداه في نصوص القرآن من خلال حادثة قربان الرؤيا الإبراهيمية ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾[2]. فتعامل النص القرآني مع دلالة الدم قرباناً جاء بأسلوب فيه الكثير من الاحتراز والتهيُّب وعدم الوضوح على عكس النص اليهودي الذي بدا فيه إنّه «العهد القديم» شغوفاً بالدماء محبّاً

(1) الخروج 13: 2.

(2) الصافات 37: 102.

متفكّراً في انبثاقه من مرجعية دينية «إذا كانت التضحية تختزل المعتقدات فلأنها تبدى للمجتمعات الدينية كما لو أنها خلاصة للأزمة القبلية المعروضة من الشعائر والمعتقدات»[1]، وسفك الدم البشري في المعتقد الديني بصفة عامة ليس مجرد ابتداعات محضة وإنما هو قاعدة لعادات طقوسية، إذ يرمز المشهد الذي يصور «أبرام» وهو يستعد للتضحية بابنه «إسحاق» في اليهودية و«إسماعيل» في الإسلام إلى العلاقة الدالة على الخضوع لأمر الإله، وهي اللحظة ذاتها التي تُشير إلى تخلّي اليهودية ثم المسلمين عن التضحية الإنسانية ليتحوّل المشهد عبر الوعي بالطابع الاستبدالي للفدية المضحّى بها إلى تكريم الإنسان دينياً وتحريم دمه من القتل أو إراقته، فهل في هذا الاستبدال تعظيمٌ للدم البشري أو فيه تعديل في مجرى الرغبة الإلهية الجامحة إلى الدم وإن في نوعه الحيواني حتى لكأن علاقة العبد بربه تبقى في حاجة إلى الدم وإهراقه لتستحيل العلاقة دموية ويتضاءل وعي الإنسان بأنه «الحيوان الوحيد الذي يدرك بأنه سيموت»[2].

هكذا مثل القربان البشري مرحلة أولية سرعان ما تم استبدالها بمرحلة أخرى عوض فيها دم الحيوان دم الإنسان بما يتناسب مع الشهوة الإلهية التي أمرت إبراهيم بذبح ابنه[3] وتقديمه قرباناً سرعان ما تمّ استبداله بكبش فداء، حتى لكأنّ قدر الإنسان منذ بدء الخلق يظلّ حبيس مفهوم الفداء والتضحية «أي تقديم نفسه قرباناً في سبيل

---

(1) René Girard, op. cit., p. 33.

(2) نفسه، ص 90.

(3) في التوراة، إسحاق وفي القرآن، إسماعيل.

التوراة وتداولته نصوص بعض الأسفار[1] اعترافاً مباشراً بالسلوك الذي ثبت عليه إبراهيم في علاقته بربه، وهو سلوك قام على الأمر والاستجابة، إذ كان الرب معيناً لإبراهيم مبشّراً لأعماله ناصراً له على أعدائه واعداً إياه بالأرض والنسل[2]، بقدر ما كان إبراهيم متفكّراً في انسياقه في سلوك الطاعة والقبول بكل الأوامر والنواهي الصادرة عن الإله وفي عزمه على تقديم ابنه «إسحاق» قرباناً ليهوه دونما جدال في إمكانية الرفض وبالتالي إيجاد مخرج لإنقاذ ابنه.

وترتكز عملية التضحية بالدم البشري على مسوغات دينية ونفسية سجلت حضورها في أساطير المجتمعات القديمة التي تضع التضحية والفداء أصل الطقوس ومصدرها ويعتبر مثالها المتطور والواضح في طقس كبش الفداء، ويُعدّ الدور الأساسي لعملية التضحية بالدم البشري من العادات الطقوسية القديمة التي تنمّ عن الرغبة في إحلال السلم الأمني وإقراره لدى الجماعة كما بيّن ذلك المفكّر الفرنسي رينيه جيرار (R. Girard) في كتابه أشياء خفية منذ تأسيس العالم[3]، وقد تعوّد الإنسان تقليد هذا الطقس المحمول على التضحية والفداء ومحاكاته بالوعي على تصميم القتل الذي كانت بدايته تلقائية، ثم سرعان ما تدرّج في شكل نظام ديني أو في شكل مؤسسة من التشريعات الدينية نصّت على اختيار ضحية بشرية يضحّى بها في طقس فداء جماعي ليتحقّق معنى السّلم ويعمّ المجموعة، وإنّ هذا الطقس الديني يظلّ أبداً

(1) للتوسع انظر سفر التكوين 22: 12.

(2) انظر سفر التكوين 12: 1-3.

(3) René Girard, *Des choses cachées depuis la fondation du monde*, Grasset et Fasquelle, 1978.

فكرة أعظم من الإنسان»[1]، فلم تخرج ظاهرة القرابين الدموية البشرية عن كونها ضرباً من ضروب التواصل والاتصال بين المؤمن والقوى الغيبية من جهة أن إراقة الدم البشري يمثّل استدعاءً للتأثير الخلاصي للقوة الغيبية لكي يحلّ التأثير في القربان المقدّم. فما دلالة التحوّل من دم البشر واستبداله بدم الحيوان، وهل مثل هذا العدول إعلاء لمنزلة الإنسان أم ضبطاً لحرمة الدم البشري؟

ب- الدم الحيواني

لقد كان الإنسان في الجاهلية يعمد إلى خلق عادات تيحتمي بها من المخاطر الغيبية ولبعلّل بها قضايا ومسائل مستعصية على الإدراك وعلى الوعي البشري، وقد توصل هذا الإنسان إلى إجراء عادة سفك دم الحيوان في بعض المناسبات الاجتماعية كالزواج أو أثناء الشعور بوجود أرواح شريرة[2]. وقد جرى هذا التقليد وسارت عليه الشعوب والأمم، فكان من الصعب تغيير هذه العادات أو تركها، «إذ ليس من السهل تغيير العادات والتقاليد في زمن يسير»[3]. وقد استهل الإنسان البدء بسفك دم الحيوان وتقديمه قرابين للآلهة، ولما كان «أبرام» يقترب إلى الإله بالخبز والخمر أمره لاحقاً بسفك الدم من خلال ذبح مجموعة من الحيوانات المعينة وهي العجل والعنز والكبش واليمامة

---

(1) ك.غ. يونغ، الدين في ضوء علم النفس، ترجمة نهاد خياطه، العربي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط 1، 1988، ص 95.

(2) للتوسع تنظر حسين الحاج حسن، الأسطورة عند العرب في الجاهلية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1998، ص 74.

(3) نفسه، ص 75.

والحمامة[1]، وقد عمد موسى في كتاب اللاويين إلى وضع الشرائع والسُّنن التي تُعيّن الكهنة واللاويين على تنظيم الحياة الدينية والاجتماعية لبني إسرائيل في ما تعلّق بفرائض العبادة وتقديم الذبائح وتبيان أساليب تقديمها. كما عُدَّ كتاب اللاويين ملخّصاً لخطة الإله «يهوه» التي اعتمدها للتكفير عن الخطايا وتجاوز الذنوب بسفك دم الذبائح وتقديمها قرباناً له. ولا نُجانب الحقيقة إذا ما سلّمنا بأن النظام التكفيري عامة لا يعدو أن يكون رمزاً لعملية الفداء العظمى التي لم يشأ لها أن تتحقق في المسيحية إلا بصلب المسيح وسفك دمه للتكفير دفعة واحدة وإلى الأبد عن خطيئة الجنس البشري. فهل تمثّل عملية التكفير عن الذنب البشري دلالة واضحة على هيمنة النظام في العبادة وممارستها على نمط مخصوص ومعيّن أعلنه الإله ليستحيل متوائماً مع طبيعة الظروف التي أحاطت بشعب بني إسرائيل؟

إن التعبير عن عملية سفك الدماء للقرابين الحيوانية قد شاعت في سفر التكوين من التوراة من خلال كلمة «الذبح» التي ترتبط بحيوان ما. ذلك أن نبي الله يعقوب قد قدم قرباناً حيوانياً في بادئ الأمر[2] وعقد ميثاقاً بينه وبين «لابان» أب زوجته[3] تضمّن قَسَماً كما تضمّن قرباناً أكل منه أقرباؤه[4]، وتوفرت آيات سفر التكوين كذلك على إشارات دالة على تقديم يعقوب لقرابين وذبائح وهو في طريقه

(1) انظر سفر اللاويين 3: 11.
(2) انظر سفر التكوين 31: 54.
(3) انظر سفر التكوين 31: 44–53.
(4) انظر سفر التكوين 31: 54.

إلى مصر حيث تلقّف من ربه توجيهات حول المستقبل والمصير[1]. وكلمة الذبح الواردة في التوراة منها اشتقت كلمة المذبح الدالة على القربان في إشارة إلى المذبح الذي بناه نوح بعد أن انحسر الطوفان[2]. وفي مناسبات لاحقة بنى أبرام وإسحاق ويعقوب مذابح في «شليم»[3]، وهي الأماكن المخصصة لحرق القرابين بالنار والمخلفة لرائحة مقدّمة إلى الرب[4]. وبذلك أسست شريعة موسى نظاماً شاملاً للقرابين في عبادة بني إسرائيل تخضع لقدسية الطقوس وأخلاقياتها معاً بما في ذلك غفران الذنوب[5].

ويعتبر قربان الدم الحيواني ذا أهمية خاصة في غفران الذنوب استناداً إلى مبدأ الحياة بالحياة، وإنّ ما ورد في نصوص القرآن ونصوص الإنجيل إنما هو رجع صدى للحيّز الدلالي نفسه الذي إليه يرتدّ الدم الحيواني قرباناً للذات الإلهية. فالنص القرآني يقرُّ بأنّ سفك دم القرابين الحيوانية إنما هي ممارسة كونية عامة مثبتة في جميع الأديان السماوية ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾[6]، ويعتبر القرآن أن الإبل هي من أغلى ما يمكن أن يقدّمه العبد المؤمن قرباناً لربه عليه يذكر اسمه ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾[7].

---

(1) انظر سفر التكوين 46: 1-4.
(2) انظر سفر التكوين 8: 20.
(3) انظر سفر التكوين 12: 7؛ 33: 20.
(4) انظر سفر اللاويين 1: 9، 13، 17؛ 9: 12؛ 4: 31.
(5) انظر سفر اللاويين 1: 7.
(6) الحج 22: 32.
(7) الحج 22: 36.

فالناقة مثلاً يمكن أن تكون طوطماً مقدّساً أو قرباناً للآلهة عند بعض القبائل العربية القديمة، ولنا في حديث محمد نبي الإسلام وهو يخاطب وفد طيء شاهد على ذلك إذ يقول: «إني خير لكم من العزى ولاتها ومن الجمل الأسود الذي تعبدونه من دون الله»[1]. ورغم العلاقة المانعة بين الطوطم والأضحية، إذ ليس هناك اعتراف صريح بإمكانية أن يتحول الطوطم إلى أضحية وهي المسألة التي عالجها كلود ليفي شتراوس (C. L. Strauss) في دفاعه الشهير عن «الفكر البري» فإنه بيّن أنّ الكلب الأبيض لا يُعتبر طوطماً عند قبائل (الإيروكوا) الهندية وإن قُدم أضحية للآلهة[2].

وقد أفادت الروايات التاريخية أنّ الإبل كانت بديلاً قربانياً ارتضته الآلهة عوضاً عن الإنسان وتحديداً عوضاً عن الابن الذي جرى تقديمه قرباناً على مذبح الآلهة مثلها في ذلك مثل كبش هابيل الذي افتدى به الله إسماعيل في القرآن ومثل بقرة موسى ذات الأصل السماوي حتى تكأنّ الأضحية تأتي دائماً من خارج الحدود الدنيوية أي من فضاء المقدّس، فمثلما جاء الكبش من مراعي الجنة، كانت «هذه البقرة نزلت من السماء ولم تكن من بقر الأرض»[3]، وبهذا تكون بقرة بني إسرائيل مثل كبش إبراهيم من أصل سماوي مقدّس لا أرضي مدنّس كشأن ناقة

---

(1) جرجس داود، أديان العرب قبل الإسلام، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، 1984، ص 265.

(2) كلود ليفي شتراوس، الفكر البري، ترجمة نظير جاهل، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، 1984، ص 265.

(3) أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتاب العربي، بيروت، المجلد 1، د ت، ص 499.

الذنوب، فهل كانت دماء القرابين الحيوانية المسفوكة على عتبات المطلق في قصة نوح تعبيراً عن الشكر للآلهة والثناء عليها أو كانت وسيلة لإزالة الذنب وطلباً للمغفرة وتحقيقاً للمصالحة؟ وهل الإله يتقبّل القربان لذاته أم لرائحة المُحرقات التي تتصاعد منه؟ إنّ سفك الدماء لتقديم القرابين بما هو أمر رباني قد ورد في صيغ لغوية في نُصُوص التوراة إما بالاسم وإما بالفعل المتعلق بتقديم المحرقات بحساب ثماني مرات في «سفر التكوين» في الأصحاح الثاني والعشرين، والمقصود بكلمة المحرقات في هذا السياق التوراتي هو تقديم قربان قابل للاستهلاك برمته في المذبح[1]، بما أنّ إسحاق كان يعرف أن أبرام تعوّد على تقديم مثل هذه القرابين وعلى الأرجح أن الكبش كان هو الأضحية المعنية، يقول القرآن عن هذا القربان: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾[2].

إنّا نلحظ أنّ عملية تقديم الذبائح الدموية للربّ في الشريعة اليهودية قد تلوّنت بحسب الأسباب والمقاصد، ونحن نظفر بإحالات دالة على ذبيحة سلام من بقر وثور وعجل وعلى ذبيحة سلام من غنم ذكر أو أنثى، وجميعها مقترن ببيان طرائق تقديمها وذبحها والتقرُّب بها. فالمتمعِّن في شريعة بني إسرائيل يقف عند ممارسات عديدة متعلقة بطُقس الذبيحة ترافق ممارسة طُقس العبادة التي لا تستقيم خالصة للرب إلا بعد الذبح وسفك الدماء ورشّه ثم حرق الشحم في أشكال واتجاهات مختلفة[3].

---

(1) انظر سفر اللاويين 1: 1- 17.

(2) الصافات 37: 107.

(3) للتوسع انظر جرجي كنعان، تاريخ يهود، ص 149.

الله التي جاءت في النص القرآني في قصة النبي صالح، تقول «الشمس»: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۞ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ۞ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۞ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ۞ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾(1). فهي ناقة الله بحق، وهي ناقة مقدّسة كبقية الإبل الواردة في الخطاب القرآني محمّلة بطبائع القداسة في الميثولوجيا الإسلامية وتنهض بوظائف غريبة وعجيبة، فالإبل المجنّحة كما روي عن علي بن أبي طالب عن الرسول أنّ «النوق البيض المجنحة تحمل المؤمنين من قبورهم يوم القيامة إلى الجنة»(2). فهل في هذا التفضيل دلالة على التفاضل الذي يمكن أن ينص عليه النص القرآني؟ ثم ما هو مقياس التفاضل بين الحيوانات المقدّمة للإله؟ وهل لدم الحيوان علاقة بهذا الترتيب التفاضلي لنوعية الحيوان القربان؟

إننا نلحظ في قصة نوح حضوراً آخر لمفهوم القربان المجسّد للدم الحيواني في مفردة (عَوْنَةٌ)(3) التي تعني تقديم المحرقات، فقد قدم نوح قرابين من البهائم والطيور التي تعتبر حيوانات طاهرة دينياً، وبصعود رائحة القربان إلى الربّ تعهّد بأن لا يلعن الأرض مرة أخرى بسبب خطايا البشرية، فاستحالت فكرة القربان الدموي الحيواني وسيلة لإطعام الرب وجزءاً من عبادة إسرائيل، ذلك أن التوراة تنظر إلى الدم الحيواني باعتباره وسيلة لعبادة الإله وإدراك معنى القداسة واكتسابها باعتبارها ضرباً من التطهّر وعنصراً مهماً للحصول على المغفرة من

---

(1) الشمس 92 : 11-15.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار إحياء الكتب العربية، ج 2، ص 137.

(3) انظر سفر التكوين 8: 20.

ويمكن أن يتنزّل مفهوم الدم في سياق الاستبدال من النذر البشري إلى النذر الحيواني باعتبار أن هذه الممارسة الدينية إنما هي تجسيد للمرحلة البدائية التي لجأت إلى المُعطى الديني من خلال سفك دم الذبيحة الحيوانية للتعبير المباشر عن قلقها وخوفها المتنامي من قوى الطبيعة ومن الأطراف الأخرى المعادية لمصالحها. وقد سجّل تاريخ بني إسرائيل من عهد الآباء إلى التشريع الموسوي حضوراً كبيراً وبروزاً لرغبة الإله «يهوه» الجامحة والملحّة في طلب القرابين الدموية الحيوانية وسفكها على عتباته المقدسة «وَكَذَلِكَ تَفْعَلُ بِبَقَرِكَ وَغَنَمِكَ سَبْعَةَ أَيامٍ، تُبْقِي الْبِكْرَ مَعَ أُمِّهِ، وَفِي يَوْمِهِ الثَّامِنِ تُقَدِّمُهُ لِي»[1]. فاحتلّ فعل سفك الدماء الحيوانية قرباناً للإله للتكفير عن الخطايا بمختلف أنواعها وأشكالها حيزاً كبيراً في جميع نصوص التوراة بما هي إحالة واضحة ودالة على قيمة هذا الطقس الديني اليهودي «فَيَرْضَى الرب بِمَوْتِ الثَّوْرِ بَدِيلاً عَنْ صَاحِبِهِ لِلتَّكْفِيرِ عَنْ خَطَايَاهُ»[2]. وكلمة تكفير تعني تقدمة أو عطية، فالشخص الذي يقدّم الذبيحة يأخذ روح الحيوان المذبوح أو دمه ويقدّمه للإله، فكأنّ المذنب يُحضِر تقدمته (حيوان صحيح من قطيعه) إلى باب خيمة الاجتماع، ويضع يديه على رأس الحيوان دلالة على أنه اتّحد معه، فيذبحه الكاهن ويأخذ من دمه ويسكبه على المذبح، وبهذه الطريقة كان يُحيي الكائن المذنب الخاطئ علاقته مع الرب الكامل القداسة.

وقد حافظ الإسلام على هذه العادة الدينية التي ترتدّ أصولها إلى

---

(1) الخروج 22: 30.

(2) اللاويون 1: 4.

إننا نتبين أنّ الطقوس والشعائر التي أملاها موسى على أتباعه «معقّدة وصعبة لأنها شعائر وطقوس سحرية»[1]، وهي تتطلب ممارسات مضبوطة من جهة التعامل مع دم الذبيحة خاصة. وتعبّر هذه الطقوس الدينية عن علاقة بني إسرائيل بالإله من جهة حصر دم الذبيحة الحيوانية في الدلالة على التطهير والتكفير والتحليل والتحريم، وما يرافق تقديمها من طقوس وعادات القرابين المحروقة من الغنم والطير والبقر الموجهة نحو ذبيحة الخطيئة كما ذبيحة السلامة وذبيحة الإثم، وشريعة المحرقة وشريعة التقدمة وجميع هذه الطقوس إنما هي شكل من أشكال التعبير عن خلاصة الديانة التاريخية التي وضعها موسى، وقد استحال هذا الطقس الديني مطلباً إلهياً منحاً ألزم النبي نوحاً أن يبني مذبحاً قرّب لله فيه الكثير من الحيوانات التي كان يتمّ حرقها على المذبح، وقد كانت الشعوب تذبح على الأماكن العالية المخصّصة وتحرق البخور[2]. وقد وضع «يهوه» حلاً في شريعة بني إسرائيل لتجاوز فعل القتل جراء اقتراف خطأ على نحو القضاء برجم المحتطب يوم السبت حتى الموت، فشرع «يهوه» لإمكانية التعويض عن قتل المقترف لهذا الصنيع بإسالة دم ذبيحة تكفيراً عن الجريمة، وكلم موسى قائلاً: «إِذَا خَافَ أَحَدٌ خِيَانَةً وَأَخْطَأَ سَهْواً فِي أَقْدَاسِ الرَّبِّ يَأْتِي إِلَى الرَّبِّ بِذَبِيحَةِ لإِثْمِهِ كَبْشاً صَحِيحاً مِنَ الْغَنَمِ وَيَدْفَعُهُ إِلَى الْكَاهِنِ عَنْهُ بِكَبْشِ الإِثْمِ فَيُصْفَحُ عَنْهُ»[3].

---

(1) نفسه، ص 156.

(2) سيغموند فرويد، الطوطم والتابو، ص 160.

(3) سفر اللاويين 5: 14-19.

2- دم الختان

لقد تنزّل الختان في التراث الشعبي والديني ظاهرة عبودية وضرباً من التضحية الدموية وخاصة في اليهودية القديمة، فقد كان لا بد من إسالة نقطة دم علامة للعبودية (دم العهد)، ويرتدّ مفهوم الختان إلى العصور القديمة باعتبار أن الإنسان منذ القدم مجبول على فعل التصرف في أعضاء جسده وجسد غيره. يشير «سفر التكوين» إلى أن الله قطع عهداً «لأبرام» بأن يعطيه ونسله الأرض الموعودة أي أرض كنعان شريطة أن يلتزم بأمر الرب بأن يقطع غلفته وغلفة كل ذكر من نسله[1]، وقد ورد في «العهد القديم» استعمال كلمة (بَتَرْ)[2] التي يرتدُّ معناها في العربية إلى كلمة «بَتَرَ»، وهي تعني القطع، ويسمى الجزء الذي يقطع «غرلة» أو «غلفة» أو «قلفة»، وغير المختون يسمى «أغرل» أو «أغلف» أو «أقلف»، وقد يكون لكلمة «ختن» صلة بكلمة «ختم» مع انقلاب الميم نوناً كما هو الحال في اللغات السامية ليكون المعنى إحالة على وضع علامة للتعرُّف إلى العبد الآبق، ومصطلح الختان يعني في كل الأحوال بتر جزء من العضو التناسلي للذكر أو الأنثى وإن كان لا يوجد في «التوراة» ذكرٌ لختان الإناث، وهو خلاف ما يذهب اليهود إليه من أنّ ختان الذكور كما أمرت به «التوراة» جزء مهم من اعتقادهم الديني.

ويشمل النص التوراتي من «العهد القديم» ذكراً مباشراً لختان الذكور وغياباً كلياً للحديث عن ختان الإناث، أما علماء اللغة العربية

---

(1) انظر سفر التكوين 17: 10-13.

(2) انظر سفر الخروج 25: 4.

مرجع نظر يهودي وإن أسقط منها عملية حرق الذبيحة، وقد ذهب فرويد (S. Freud) إلى أن التدرُّج في إرضاء الآلهة بالقربان الدموي من مجرد تقديمه لحماً خالصاً إلى تقديمه في شكل ذبيحة محروقة على النار إنما يكشف عن تطور ملحوظ وتبدُّل مخصوص في صيغة العلاقة بين الإنسان وربه، وفي مستوى تصور الإنسان لإلهه، فقد «أتاح استخدام النار الذي جعل اللحم القرباني المقدَّم على المذبح يشكل دخاني إعداد الأغذية البشرية بطريقة أنسب للطبيعة الإلهية»[1]. فلماذا كان الإله الإسلامي والإله المسيحي نقيضين للإله اليهودي الذي يصر على أن يكون القربان المقدم إليه محروقاً في شكل ذبيحة (يَحْرِقُهَا الكَاهِنُ عَلَى المَذْبَحِ لِيَكُونَ طَعَاماً وَقُوداً لِلرب)[2].

إننا نتبيَّن من خلال النظر والتمحيص في النصوص المقدسة أنها تحفل بحضور الدم المسفوك على عتبات المقدس، فأينما ولّيت صفحاته هناك دم مسفوك إمّا للأضحية وإمّا للتقرُّب أو لغيرهما من المناسبات. وهناك دم مسفوك أثناء الحياة وأثناء مفارقة الحياة، حتى لكأنّ الدم في سيلانه يستحيل عنصراً بارزاً لإدراك البركة والتزكية، فحافظ الدم على مركزيته وفاعليته في الضمير الإيماني. وقد تكون هذه الفاعلية مستمدة على سبيل الإحياء والتقليد لما ساد الشعوب البدائية أو مجتمعات الديانات الوضعية حتى صار سفك الدم عقداً مبرماً بين الإنسان وخالقه في الديانات السماوية وإن بأشكال مختلفة جماعية أو فردية.

---

(1) فرويد، الطوطم والتابو، ص ص 160-161.

(2) اللاويون 3: 11.

كلمة «Circumcision» للدلالة على ختان الذكور والإناث معاً، ويعود أصل الكلمة إلى اليونانية وتعني «القطع دائرياً»، وقد تنفرد الكلمة في الاستعمال للإحالة على ختان الذكور في حين يشار إلى ختان الإناث بكلمة «Excision» التي تعني «الاستئصال».

وقد مثل مفهوم الختان موضوع جدل ديني حادّ بين اليهودية والمسيحية والإسلام، ذلك أنّ الجدل حول الختان غالباً ما يُقترن بالدين أو يبدأ به مع الاحتفاظ بنقطة التلاقي بين جميع الكتب المقدسة التي نصّت على ذكر ختان الذكور، ولم تذكر هذه النصوص البتة ختان الإناث، فالدين بما هو مجموعة من الممارسات والطقوس يقتضي دائماً بعض المراسم التي تجري ممارستها ابتغاء الوصول إلى غرض محدّد وغاية معينة. والدين هو الذي «يستولي على الذات البشرية ويُخضعها لسلطانه، فتكون دائماً ضحيته بأكثر ممّا هي خالقة له»[1]. ونحن إذ نروم مقاربة موضوع الختان في الديانات الكتابية، نحاول أن نقف على نقاط التقاطع والتقارب بين ما ورد في هذه النصوص الدينية من إشارات وأحكام في شأن مسألة الختان ودلالة حضور دم الختان في هذه النصوص.

أ- دم الختان في الفكر الديني اليهودي

إن المتأمل في نصوص العهد القديم يلحظ حضور عدّة نصوص تتحدث عن ختان الذكور لعلّ أبرزها نصّان: «سفر التكوين»[2]

(1) انظر يونغ، في ضوء علم النفس، ص 12.
(2) انظر سفر التكوين 17: 1-27.

فيستعملون كلمة «الختان» بمفردات دالة عليها من مثل الخفض والخفاض والإعذار، وللفظة صلة بالزواج، يقول ابن منظور: «الختن أبو امرأة الرجل وأخو امرأته وكل من كان من قبل امرأته، والجمع أختان والأنثى ختنة، وخَاتَنَ الرجلُ الرجلَ إذا تزوج إليه. وفي الحديث: علي خَتْنُ رسول الله (ﷺ) أي زوج ابنته والاسم الختونة [...] والختن: زوج فتاة القوم، ومن كان من قبله من رجل أو من امرأة فهم كلهم أختان لأهل المرأة، وأم المرأة وأبوها: ختنان للزوج»[1].

ويذهب ابن قيم الجوزية إلى القول بأن: «قطع هذه الجلدة علامة على العبودية. فإنك تجد قطع طرف الأذن وكيّ الجبهة ونحو ذلك في كثير من الرقيق علامة لرقهم وعبوديتهم، حتى إذا أبق رُدَّ إلى مالكه بتلك العلامة»[2]. أما ختان الإناث فتطلق عليه كلمة «خفاض» التي تعني إزالة تركيب مرتفع للنزول به إلى مستوى أكثر انخفاضاً، يقول ابن منظور: «خفض: في أسماء الله تعالى الخافض: هو الذي يخفض الجبارين والفراعنة أي يضعهم ويهينهم»[3]، ونعلّ في هذا التعريف ما يشير إلى القصد من ختان الأنثى وهو التخفيض من درجة الشهوة الجنسية عندها لإحكام سيطرة الرجل عليها وحفظها من الوقوع في الرذيلة والانزلاق في الخطيئة. وفي اللغة الإنجليزية يقع استعمال

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، مادة: (خَتَنَ)، وفي المعنى نفسه، انظر أيضاً الزبيدي، شرح تاج العروس، مادة: (ختن).

(2) شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحفة المودود بأحكام المولود، دار الكتب العربي، بيروت، 1997.

(3) ابن منظور، لسان العرب، مادة: (خَفَضَ).

التناسلية كما هي كان المصريون ومن تعلّم عنهم يمارسون عادة الختان حفظاً للنظافة لأن النظافة عندهم أولى من الجمال[1]، غير أن دلالة الختان في الديانة اليهودية لم تقتصر على معنى الحفاظ على النظافة كما كان شأنها لدى الشعوب القديمة وإنما استحالت عملية الختان علامة يهودية دالة على معنى الانتماء وإدراك الخلاص، فالنص التوراتي حين تحدَّث عن الختان أول مرة ضبطه في سياق التنصيص على علامة العهد التي تربط إله بني إسرائيل بشعبه، فهو يطالب من «أبرام» أن يُختتن وأن يُجري هذه العملية على جميع أفراد عائلته وعلى عبيده الذكور مقابل أن يلتزم «يهوه» بتكثير نسله وإعطائه أرض الميعاد - فلسطين، وبسبب ذلك يعدُّ الختان في الفكر اللاهوتي اليهودي المستمدّ من الكتاب المقدس مرجع النظر وإليه الرجعى في القول والفعل، أمراً إلهياً من الأوامر التي نصّت التوراة عليها مثلما نصت على عقوبة من يخالفها: «أي أَغْلَفٍ مِنَ الذكُور لَمْ يُخْتَنْ فِي لَحْمِ غُلْفَتِهِ، تُفْصَلُ تِلْكَ النفْسُ مِنْ ذَوِيهَا، لأنهُ قَدْ نَقَضَ عَهْدِي»[2]، وهنا تبدو عملية إراقة الدم وإسالته جراء الختان مسألة مصيرية لدى الشعب اليهودي، فالدم السائل إثر عملية الختان يمثّل التزاماً صارماً بالعهد ووفاء به: «أنَا آمُرُكُمْ بِهِ تَحْرِصُونَ أَنْ تَعْلَمُوهُ وَلاَ تَزِدْ عَلَيْهِ، وَلاَ تُنْقِصْ مِنْهُ»[3]. إن عدم الختان وعدم الالتزام بهذا الأمر الرباني يعرّضان غير المختون للقتل والموت على نحو ما حدث للنبي موسى في التوراة

---

(1) للتوسع انظر المرجع نفسه، ص 46.

(2) التكوين 17: 14.

(3) التثنية 13: 1.

و«سفر الأحبار»[1]، وتوحي التوراة بأنّ الختان يعبّر عن الأمر الذي به ألزم الربّ «أبرام» الأب الأسطوري للعرب واليهود، غير أننا نقف في بعض نصوص التوراة على إحالة دالة على أنّ الختان كان يمارَس منذ عهود قديمة قد يعود إلى العصر الحجري حيث كان الصوان آلة الختان[2]. وإذا ما عدنا إلى «سفر التكوين» نجد أنّ آيات الأصحاح السابع عشر تحكي أطوار القصة التي مفادها أن الله ظهر «لأبرام» عندما كان عمره تسعاً وتسعين سنة (99 سنة) وعمر ابنه إسحاق ثلاث عشرة سنة، ولما سقط «أبرام» على وجهه وأغمي عليه من شدة خشيته من رؤية الله، ثم أفاق قطع الله عهداً على نفسه «لأبرام» بأن يكثر ذريته ويضاعف نسله ويعطيه أرض الميعاد أي أرض كنعان، ومقابل ذلك يتعهّد أبرام أن يُختتن وأن يجري هذه العملية على جميع أفراد عائلته وعلى عبيده الذكور لتكون عملية الختان علامة عهد الله مع «أبرام»[3].

غير أنّ الدارس المتمعّن في مفهوم الختان عند اليهود سرعان ما يقف على حضور هذه العملية في تاريخ الشعوب القديمة قبل ظهور الأديان الكتابية وخاصة في مصر القديمة التي عرفت ختان الذكور والإناث[4] إذ نجد عديد الإشارات التي يسجّلها التاريخ والدالة على عادة الختان، فبينما كانت جميع شعوب الأرض تُبقي على الأعضاء

(1) انظر سفر الأحبار 12: 1-8.
(2) انظر سفر الخروج 4: 25. انظر سفر يشوع 5: 2-3.
(3) انظر سفر التكوين 17: 10.
(4) للتوسع انظر سامي الذيب، مؤامرة الصمت، الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات الطباعية، دمشق، ط 1، 2003، ص 45.

التي تدبّرها النص الديني اليهودي المتصل بعملية الختان حتى لكأنّ معنى الانتساب إلى الهوية اليهودية لا تستقيم إلا بنزول قطرة دم الختان. وقد بالغت الرواية اليهودية في تأكيد أهمية الختان والقيمة القصوى التي يكتسبها دمه «إن الدم الذي نزل من الطفل عند الختان يُحفظ أمام الله، وعندما يأتي يوم الدينونة فإن الله ينظر للدم فيخلص العالم»[1].

لئن كان الختان في الفكر اليهودي بهذه الأهمية المبالَغ فيها والتي تشترط قطع غلف المولود ابن الثمانية أيام فلقد تبدّت هذه الأهمية محفوفة بعتمة قد تكون غير مقصودة من أهمها السؤال عن الأطفال الذين يموتون قبل يومهم الثامن دون ختان. وهل يعني أنّ كلّ الصالحين الذين سبقوا «أبرام» مصيرهم في الجحيم؟ إننا نجد في التوراة استعمالاً مجازياً للختان، فهو يرتبط في «سفر التكوين» بالانتماء إلى فكرة شعب الله المختار وبالوعد بأرض الميعاد[2] وخاصة في «سفر التثنية» الذي يرتبط العهد فيه بختان القلب: «فَاخْتِنُوا غُلْفَ قُلُوبِكُمْ وَلاَ تُقْسُوا رِقَابَكُمْ بَعْدَ الْيَوْمِ»[3]. ومهما اختلفت سياقات المجاز في الحديث عن عملية الختان عند اليهود، فإنها تظلّ قاعدة أساسية في التوراة تقول بوجوب أن يتمّ ختان كل مولود ذكر يهودي في يومه الثامن، كما إنّ الختان لا قيمة دينية له إلا إذا تحقّقت عمليّة إنزال قطرة الدم من حشفة الذكر، ولا يمكن إغفال هذه القاعدة

(1) سامي الذيب، مؤامرة الصمت، ص 53.
(2) انظر سفر التكوين 17 : 11.
(3) سفر التثنية 10 : 16.

حين أهمَل ختان ابنه وهو في طريقه إلى مصر، وقد لاقاه الرب وهمَّ بقتله لولا أن أنقذته زوجته «صفورة» بأن قامت بتلك المهمة[1].

ولا تقتصر دلالة الختان في الفكر الديني اليهودي على مجرد الإحالة على علامة العهد وإنما يتعدى الختان هذه الحدود السياقية ويخترقها ليتجلى امتداداً لفكر الطهارة من عدمها، ذلك أنّ نصوص التوراة تُعتبر الأغلف، أي غير المختون، نجساً في إشارة إلى غير اليهودي، وهو الرجل غير الطاهر الذي لا يحمل علامة الانتماء إلى شعب الله المختار، وقد تبدّى هذا المعنى في «سفر يشوع» حيث نقرأ ما مفاده أنّ يشوع قبل دخول اليهود أرض الميعاد قام بختانهم جميعاً، فرفع عن المصريين العار وطهّرهم من النجاسة وأدخلهم في سلالة الشعب المختار[2]. وقد شدّدت بقية نصوص «العهد القديم» على نبذ غير المختون ليستحيل الختان أسلوباً لتطهير المولود من نجاسة أمه ولتتحول نقطة الدم النازلة من المختون علامة على الطهارة التي تمنحه بشارة الدخول إلى الهيكل باعتبار أن الأغلف يُمنع من ذلك[3]، بل ويمتدّ المنع إلى حدود حرماته من دخول كلّ مدينة أورشليم[4].

وقد حددت التوراة الختان شرطاً من شروط الزواج، إذ لا يحقّ أن يتزوج الأغلف من يهودية، كما لا يجوز لليهودي أن يتزوج امرأة تنتسب إلى جماعة غير مختونة، ولعلّ في هذا النظام العرقي المتعلّق بمؤسسة الزواج في الديانة اليهودية امتداداً لفكرة شعب الله المختار

(1) انظر سفر الخروج 4: 20-26.
(2) انظر سفر يشوع 5: 9.
(3) انظر سفر حزقيال 44: 9.
(4) انظر سفر إشعياء 52: 1.

زَكَرِيا عَلَى اسْمِ أَبِيهِ، فَأَجَابَتْ أُمُّهُ وَقَالَتْ: لاَ بَلْ يُسَمَّى يُوحَنَّا»[1]. فهل في هذه الشواهد الدالة على استمرار عملية الختان اليهودية الأصل في مراحل نشأة الديانة المسيحية اعتراف بالختان وإقرار به كما جاء في اليهودية؟

لقد حافظت شريعة المسيح على الختان وفرضته على المسيحيين الذين صاروا يختتنون على شريعة موسى، فقد أقرّ يسوع الختان وأبرز أنه العمل الوحيد الذي يجوز ممارسته يوم السبت: «فَإِنْ كَانَ الإِنْسَانُ يَقْبَلُ الخِتَانَ فِي السَّبْتِ لِئَلاَّ يُنْقَضَ نَامُوسُ مُوسَى، أَفَتَسْخَطُونَ عَلَيَّ لأَنِّي شَفَيْتُ إِنْسَاناً كُلَّهُ فِي السَّبْتِ»[2]. إننا نتبين أن الموقف المسيحي من الختان لم يرد واضحاً وجلياً، ولكن يمكن أن نستخلصه من خلال نظرة المسيح إلى الشريعة اليهودية: «وَلاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأُبْطِلَ الشَّرِيعَةَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ، مَا جِئْتُ لأُبْطِلَ بَلْ لأُكَمِّلَ»[3]. فالمسيح إذن لم يتعرض للختان بشكل مباشر وإنما مهّد السبيل لرسله اللاحقين كي يلغوا الختان، وقد بدأت عملية نسخ فريضة الختان مع ظهور الكثير من اليهود الذين آمنوا بالديانة المسيحية وتمسّكوا بشريعة موسى وانصرفوا يعلّمون البقية فريضة الختان: «إِنْ لَمْ تَخْتَتِنُوا حَسَبَ عَادَةِ موسى، لاَ يُمْكِنُكُمْ أَنْ تَخْلُصُوا»[4].

ويذهب بعض الباحثين إلى «أن الكثير من غير اليهود الذين لم

---

(1) لوقا 1: 59-60.
(2) يوحنا 7: 23.
(3) متى 5: 17.
(4) أعمال الرسل 15: 1.

لكونها تمثّل أمراً إلهياً وعلامة عهد بين بني إسرائيل وإلههم الذي تظلّ مرضاته رهين قطرة دم تنزل من حشفة المختون ليستقيم العهد بين الله «وأبرام» لا عهد ختان (بريت ميلا) وإنما عهد دم الختان (بريت دم ميلا). وهكذا تتّخذ قطرة الدم في عملية الختان بُعداً مجازياً أسطورياً في الفكر اليهودي، بها يتحقّق الانتماء، وبواسطتها ينجز الرب وعده لشعبه المختار لتكون المواءمة بين الله والإنسان مختزنة في قطرة الدم النازلة من حشفة المختون ومجازاً تتصاعد إلى الرب اعترافاً بالطاعة والولاء الدائم لأوامره وأحكامه.

ب- دم الختان في الفكر الديني المسيحي

استمرت عملية الختان فريضة لازمة في اليهودية اقتدى بها المسيحيون الأوائل وآمنوا بها، ذلك أن المسيح نفسه اختتن في اليوم الثامن تلبية للأمر الموسوي المنصوص عليه من الرب في الكتاب المقدس: «وَلَمَّا بَلَغَ الطِّفْلُ يَوْمَهُ الثَّامِنَ وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي يَنْبَغِي فِيهِ خِتَانُهُ دَعَا اسْمَهُ يَسُوعَ»[1]. ويذهب سامي الذيب في كتابه مؤامرة الصمت إلى أنّ إنجيل لوقا انفرد «بذكر خبر ختان يوحنا المعمدان»[2] وهو النبي يحيى في القرآن[3] وذكر خبر ختان المسيح وهو النبي عيسى بن مريم في آيات القرآن[4]. ويذهب إنجيل لوقا إلى أن المسيح ختن يوحنا: «وَفِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ جَاؤُوا لِخِتَانِ الطِّفْلِ وَسَمَّوْهُ

---

(1) لوقا 2: 21.

(2) سامي الذيب، مؤامرة الصمت، ص 79.

(3) انظر سورة آل عمران 3: 38.

(4) انظر سورة آل عمران 3: 59.

يؤمنوا بالختان أو يزاولوه بدؤوا ينصرفون عن اعتناق المسيحية»[1]، فاجتمع الرُّسل للنظر في هذه المشكلة الطارئة، وقرّروا في النهاية الاتفاق على عدم إثقال كاهل الراجعين إلى الله من الأمم بفرائض غير ذات جدوى: «لأَنَّهُ قَدْ رَأَى الرُّوحُ الْقُدُسُ وَنَحْنُ أَلاَّ نَضَعَ عَلَيْكُمْ ثِقْلاً أَكْثَرَ غَيْرَ هَذِهِ الأَشْيَاءِ الْوَاجِبَةِ، أَنْ تَمْتَنِعُوا عَمَّا ذُبِحَ لِلأَصْنَامِ وَعَنِ الدَّمِ وَالْمَخْنُوقِ وَالزِّنَا الَّتِي إِنْ حَفِظْتُمْ أَنْفُسَكُمْ مِنْهَا فَنِعْمَ تَفْعَلُونَ، كُونُوا مُعَافِينَ»[2]، فكان الهدف من إلغاء الختان في المسيحية تخفيف التكاليف على المؤمنين الجدد، وتمَّ إرجاع هذا الإلغاء إلى الروح القدس، وفي ذلك يقول الأنبا فريقوريس[3]: «ولهذه المشكلة الخطيرة انعقد المجمع الرسولي في سنة 51-52 لميلاد المسيح وبحث مشكلة الختان، وأصدر فيها قراراً حاسماً»[4].

إننا نتبيَّن أن الديانة المسيحية التي لم تنشأ مكتملة منذ بداياتها وإنما خضعت للاكتمال عبر مراحل تاريخية شهدت طرحاً لعديد القضايا والمسائل المتّصلة بطبيعة العقيدة الإيمانية المسيحية وما يحيط بها من عوالق من جهة المعاملات والعبادات قد دعت إلى عدم الحاجة إلى الختان لاكتمال الإيمان، وبالتالي عدم الحاجة إلى قطرات

---

(1) علي السيد بوعضة، المرأة في اليهودية والمسيحية والإسلام، دار الوفاء، ط 1، 2003، ص 28.

(2) أعمال الرسل 15: 28-30.

(3) الأنبا فريقوريس، أسقف التعليم والثقافة القبطية والبحث العلمي وهو أعلى سلطة دينية قبطية في مصر بعد البابا شنودة.

(4) الأنبا فريقوريس، الختان في المسيحية، دار النشر للثقافة القبطية، د. ت، ص 24.

الدماء التي تخلّفها عملية ختان المولود، وهذا يعني جدلاً تهافت قيمة الختان في الجسد للمؤمن، فلم يعُد الأغلف مَن خالف الشريعة وتجاوزها، كما لم يعُد المختون مطيعاً للشريعة وملتزماً بها، وقد استعاضت المسيحية عن الختان في أبعاده الحسية، وحافظت عليه في بعده المجرد: «الخِتَانُ خِتَانُ القَلْبِ العَائِدِ إِلَى الروحِ لاَ إِلَى حَرْفِ الشَرِيعَةِ»[1]. إننا لا نجد ذِكراً للختان في رسالة يعقوب ورسالتي بطرس ورسائل يوحنا الثلاث ورسالة يهوذا ورؤيا يوحنا بما أن المهم هو أن يكون للمسيحيين ختان القلب والروح عن الخطيئة والالتزام بوصايا الرب: «فِي المَسِيحِ يَسُوعَ لاَ قِيمَةَ لِلْخِتَانِ وَلاَ لِلْغُلْفِ وَإِنَمَا القِيمَةُ لِلإِيمَانِ العَامِلِ بِالمَحَبَةِ»[2]. هكذا لا يأخذ موضوع دم الختان في المسيحية حيزاً شاسعاً من جهة البُعد الحسي والمادي وإنما يتخذ بُعداً رمزياً مجرداً يشي بطهارة النفس وسلامة السريرة، وهما الشرطان اللذان يجب أن يتوفّرا لدى المتعبّد عند وقوفه بين يدي الرب المعبود، بخلاف ما كان شائعاً في الشريعة الموسوية من أنّ قطرات دم الختان شرطٌ للانتساب إلى اليهودية ومن أن قطرات دم الختان اعتراف بما استقرّ في الضمير الجمعي اليهودي من دلالة على الانتماء لاكتمال الإيمان، فهل كان الختان في شريعة موسى يلغي ختان القلب ويلغي الإيمان القائم على مبدأ المحبة وقيم الخير؟ ألم يكن الختان بما يفرزه من إراقة للدم هو العهد الدائم بين الله والمؤمنين فرضه إله إسرائيل على «أبرام» وهو ابن تسعة وتسعين عاماً «هَذَا هُوَ عَهْدِي الَذِي بَيْنِي

(1) رومية 2: 29.
(2) غلاطية 5: 6.

وَبَيْنَكَ وَبَيْنَ ذُرِّيَّتِكَ مِنْ بَعْدِكَ الَّذِي عَلَيْكُمْ أَنْ تَحْفَظُوهُ أَنْ يُخْتَنَ كُلُّ ذَكَرٍ مِنْكُمْ... يُخْتَنُونَ عَلَى مَدَى أَجْيَالِكُمْ»[1]. غَيْرَ أَن «العَهْد الجَدِيد» يرى أن المعنى الحقيقي للختان كما أقرّه الله على أبرام ليس فعلاً مادياً في دلالاته العميقة باعتبار أن أبرام بارّ بربه حتى قبل أن يُختن، وإنما كانت قطرات الدم المنسابة مجرّد علامة مادية وخارجية دالة على دخول أبرام في عهد مع الله[2].

وقد استعاضت المسيحية عن الختان فريضة واجبة واستبدلته بالتعميد، وهو أن يغمس المولود الجديد أو الداخل الجديد في المسيحية في الماء إيذاناً بانتسابه إلى الكنيسة والاتحاد مع المسيح والغفران من الخطيئة، يعني جدلاً ولادة جديدة في المسيح، فتحوّلت عملية ختن المولود الذكر إلى نظافة لا إلى طهارة أو إيمان.

لم تعد علامة الدم الناجمة عن الختان ذات أهمية روحية في العهد الجديد، بل صارت الأهمية للمعمودية التي أصبحت المدخل الحقيقي للمسيحية، ونعلّ في ذلك دليلاً على أن العهد القديم حين جاء جلب معه استعدادات للمسيح القادم من جهة الطقوس التي تشير إلى معنى الفادي الذي سوف يتحمل خطيئة العالم وسيكون موته تكفيراً عن الخطايا، لذلك كان الدم في العهد القديم إشارة إلى دَمِ المسيح المخلّص، وللدخول في هذه الشريعة الموسوية كان لا بد من الدم علامة للعهد، فكان الختان علامة في جسد الإنسان تذكيراً بحاجته إلى المخلّص[3]. فصارت المعمودية هي ختان المسيح

---

(1) اللاويون 17: 9-12.

(2) لتتوسع انظر الختان في المسيحية، ص ص 25-26.

(3) لتتوسع انظر المرجع نفسه، ص 29.

ودخول الرب يسوع إلى الملكوت، ولم يعد الإيمان يُعرَّف بالدم وإنما بحفظ وصايا الرب، والدليل على ذلك قول الرسول [بولس] في الفصل السابع من رسالته إلى «أهل كورنثوس»: «لَيْسَ الخِتَانُ بِشَيْءٍ وَلاَ الغُلْفُ بِشَيْءٍ بَلِ الشَّيْءُ هُوَ حِفْظُ وَصَايَا اللهِ»[1]. وبذلك ألغت المعمودية الختان وأدرجته في سياق الاختياري لا الإجباري في باب النظافة لا الطهارة أو الإيمان. وهكذا نتبيَّن أن النصوص المقدسة لليهودية والمسيحية قد تعاملت مع الدم في موضوع الختان بأنساق معرفية ذات صلة وثيقة بالعقيدة الإيمانية التي انتقلت من الدم علامة عهد وشرط إيمان إلى الماء دخولاً في العقيدة وتطهراً من الذنوب والخطايا، فاستحال الماء تعويضاً عن الدم، واستقرت المعمودية في الضمير المسيحي استعاضة عن الختان بما أن دم المسيح يطهّر الخطايا، ولا يمكن إدراك ذلك إلا بالماء لتجتمع في المعمودية أطراف رمزية ثلاثة هي الدم والماء والروح القدس، «الَّذِينَ يَشْهَدُونَ فِي الأَرْضِ ثَلاَثَةٌ: الرُّوحُ وَالمَاءُ وَالدَّمُ، وَالثَّلاَثَةُ هُمْ وَاحِدٌ»[2].

فهل نجد صدى هذه المنطلقات الحسية والمقاصد الإيمانية المتصلة بدم الختان في الشريعة المحمدية؟ وكيف تعامل النص القرآني مع الموروث الديني اليهودي والمسيحي بشأن الختان ودلالة دم الختان؟

ج- دم الختان في الفكر الديني الإسلامي

لئن كانت اليهودية قد اتّخذت من دم ختان الذكور عهداً وميثاقاً مع الله، وسكتت عن ختان الإناث وجاءت المسيحية لتنسخ ختان

(1) بولس 7: 19.
(2) يوحنا 5: 8.

استعان بها المفسّرون لتأييد حضور ختان الذكور في النص القرآني ما نقوله «النحل»: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1]، ولأن إبراهيم اختتن وهو ابن ثمانٍ وثمانين سنة يستوجب على المسلمين اتباع ملته، فالمسلم ملزم بالختان لكي يكتمل إسلامه، وعليه إتمام الختان كما أتمّه إبراهيم، «والمهم في الأمر أنّ مؤيدي ختان الذكور تمسّكوا بتفسيرهم للكلمات بأنها تعني الختان، أي أن الله ابتلى إبراهيم بالختان فأتمّه. وبما أن المسلمين مأمورون باتّباع ملة إبراهيم فعليهم أن يختتنوا أسوة بإبراهيم»[2]. ولعلّ في هذا الشاهد ما يحيل على التنصيص الوارد في القرآن، حيث تقول «الروم»: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[3]، ويراد بالفطرة في هذا السياق معنى السنة المألوفة للاتباع والطريقة والملة والشريعة، غير أن الدارس المتمعن في النص القرآني يلحظ أن حضور ذكر إبراهيم يصل إلى تسع وستين مرة في القرآن ويعتبره ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[4]. ولكنه لم يتحدث عن ختان إبراهيم بتاتاً كما تفعل «التوراة»، ولم يتضمن القرآن أحكاماً صريحة خاصة بختان الأنثى الذي كان شائعاً في الجزيرة العربية قبل الحدث القرآني وقبل البعثة المحمدية بغرض حماية المرأة من طغيان الرغبة الجنسية واحتمال إمكانات عدم التحكّم في هذه الشهوة.

غير أنّ الاختلاف بدا قائماً بين علماء المسلمين والمفسّرين في

---

(1) النحل 16: 123.

(2) سامي الذيب، مؤامرة الصمت، ص 105.

(3) الروم 30: 30.

(4) الحشر 60: 4.

الذكور من الفريضة والأمر الإلهي وتعوّضه بالمعمودية ذات الجذور اليونانية القديمة الدّالة على الغوص في السائل للذكور والإناث، فلقد سكت النص القرآني عن ختان الذكور والإناث معاً، ذلك أنّ كلمة ختان لم ترِدْ إطلاقاً وبأيّ شكل من أشكالها اللغوية النحوية والصرفية في القرآن، ولا نجانب الحقيقة إذا ما أشرنا إلى أنّ أقصى ما توفّر عليه النص القرآني من إشارات تعبيرية في هذا المجال هو ذكر لكلمة «أغلف» في بُعدها الرمزي للتعبير عن غلف القلب وليس غلف الجسد، وانحصرت هذه الإشارات في نصّين وردا على لسان اليهود هما، أولاً تقول «البقرة»: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾[1]، وثانياً، تقول «النساء»: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2]. ويعود أصل عبارة «قُلُوبُنَا غُلْفٌ» الواردة في الذكر الحكيم إلى التوراة في ما قاله إرميا: «اخْتَتِنُوا لِلرَّبِّ وَأَزِيلُوا غُلْفَ قُلُوبِكُمْ يَا رِجَالَ يَهُوذَا وَسُكَّانَ أُورُشَلِيمَ»[3].

ولقد ذهب علماء الإسلام والمفسّرون مذهب القول بوجوب الختان في الإسلام، واستدلّوا على مذهبهم بعددٍ من الآيات المتشابهات التي فسّروها بقول الإسلام بالختان تأكيد مصداقية ما تقوله «الأنعام»: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[4]، ومن الآيات التي

(1) البقرة 2: 88.
(2) النساء 4: 155.
(3) إرميا 4: 4.
(4) الأنعام 6: 38.

بالختان وبقطع الغلفة المقترن بسيلان الدم إشارة على قيمة الختان في اكتمال الإيمان والطهارة من النجاسة «أختنوا أولادكم لسبعة أيام فإنه أطهر وأسرع لنبات اللحم وأن الأرض لتكره بول الأغلف»[1].

ويمكن أن نتبيّن علاقة الختان بالطهارة في ما ذهب إليه ابن قيم الجوزية الذي يرى أن الشيطان يختبئ في غرلة الرجل وقطعها تطهير له، فهو يقول: «أيّ زينة أحسن من أخذ ما طال وجاوز الحدّ من جلدة الغلفة وشعر العانة وشعر الإبط وشعر الشارب وما طال من الظفر، فإن الشيطان يختبئ تحت ذلك كله ويألفه ويقطن به، حتى أنه ينفخ في إحليل الأغلف وفرج الغلفاء ما لا ينفخ في المختون ويختبئ في شعر العانة وتحت الأظافر، فالغرلة أقبح في موضعها من الظفر الطويل والشارب الطويل والعانة الفاحشة الطول. ولا يخفى على ذي الحسّ السليم قبح الغرلة وما في إزالتها من التحسين والتنظيف والتزيين، ولهذا لما ابتلى الله خليله إبراهيم بإزالة هذه الأمور فأتمّهن، جعله إماماً للناس، هذا مع ما فيه من بهاء الوجه وضيائه، وفي تركه من الكسفة التي ترى عليه»[2]. واعتماداً على هذا الاعتقاد يرى الفقهاء أن الختان الدموي ضروري لإتمام الطهارة التي دونها لا تصحّ الصلاة، لأن «الغرلة وهي ما يقطع في الختان نجسة لأنها قطعت من حين فلا يجوز أن يحملها المصلي ولا أن تدخل المسجد

---

(1) أبو جعفر محمد يعقوب الكليني، **الأصول والفروع**، دار الكتب الإسلامية، طهران، 1968، ج 6، ص 42.

(2) شمس الدين ابن قيم الجوزية، **تحفة المودود بأحكام المولود**، دار الكتب العربي، بيروت، 1997، الجزء الخاص بالختان، ص 286.

شأن ختان الأنثى بين مؤيد له ورافض لتنقسم الأصوات إلى قسمين أولهما يدعو إلى اعتبار ختان الأنثى واجباً تماماً كما هو الأمر في ختان الذكر وثانيهما يفرّق بين ختان الذكر والأنثى، إذ يعتبر ختان الإناث من المستحبّات وأحياناً يذهبون مذهب تحريمه لمخالفته الشريعة الإسلامية بالإضافة إلى القراءات التي تقوم على مقاربة الختان من منظور صحي طبي، وما يهمنا في هذا المجال هو حضور مفهوم الختان الدموي في العقيدة المحمدية وإن بأشكال غير مباشرة، وفي ذلك أكبر الشواهد دلالة على منزلة الختان في الإسلام، إذ يكتمل إيمان المؤمن بنزول قطرات دم الختان التزاماً منه بعادة طقوسية دينية من جهة أولى، ومن جهة ثانية يمثّل دم الختان ضرباً من ضروب الطهارة من النجاسة بقطع الغلفة: «الختان للذكر سنة مؤكّدة، وقال الشافعي واجب، والخفاض في الأنثى مندوب كعدم النهك لقوله (ﷺ) لمن تخفض الإناث: أخفضي ولا تنهكي»، أي لا تجوري في قطع اللحمة النابتة بين الشفرين فوق الفرج، فإنه يضعف الوجه ولذّة الجماع»[1]. لذلك أخذ أكثر فقهاء المسلمين موقفاً صارماً من ختان الذكور فاعتبروه واجباً، وقد مارس المسلمون عملية الختان إبان خروجهم من إسبانيا رغم تشدّد المسيحيين بأن فرضوا عليهم عدم ختان أطفالهم تحت طائلة الموت[2]. وإن في هذا الالتزام الإسلامي

---

(1) أحمد الدردير، الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك، دار المعارف، القاهرة، 1991، ج 2، ص ص 151-152.

(2) للتوسع انظر:

Bernard Vincent, *Les Moriques et la circoncision*, Publications de l'Institut supérieur de documentation, N° 4, Tunis, 1984, p. 190.

الدينية وإن اختلفت أشكال التعبير عنه وطرائق تنفيذه وممارسته، لكنه يظل في العقيدة المحمدية أكثر الحضور إشكالاً باعتباره تجربة حسية مستعادة من الرسالات السماوية السابقة التي ألحت السيرة النبوية في التحذير منها ومخالفتها، «خالفوا اليهود، خالفوا أهل الكتاب، خالفوا المشركين»[1].

خاتمة الفصل

لقد حظي مفهوم الدم في النصوص المقدسة بمنزلة بارزة من حيث اقترانه إما بعملية تقديم القرابين البشرية منها والحيوانية وإما بعملية الختان المتعلقة بالذكر وبالأنثى، فلم يعد القربان الدموي مجرد طقس ديني به يتقرب الإنسان من إلهه كي يسعد ويرضى، كما لم يقتصر مدلوله على مجرد اعتباره غذاء للآلهة كما استقر ذلك في المعتقدات البدائية والوثنية، وإنما طال الدم في القرابين أبعاداً أعمق في اليهودية والمسيحية والإسلام ليستحيل موصولاً بالمجال الأنطولوجي بما هو رمز للحياة مخصص حصرياً لأنه «لأنّ كل ما له علاقة بالحياة له علاقة وثيقة بالله سيد الحياة الأوحد»[2]، فجسد القربان الدموي جسر حوار وجدل بين طرفين متباعدين يسعى أحدهما إلى الاقتراب من الآخر توددا وضمعاً في اكتساب مرضاته.

ومثلت الذبيحة الدموية في النصوص المقدّسة مظهراً بارزاً من مظاهر التفكير الديني، بل هي تعبير عن حاجة الكائن البشري إلى

---

(1) علي بن الحسن ابن عساكر، تبيين الامتنان بالأمر بالختان، تحقيق فتحي السيد، دار الصحابة للتراث، طنطا، 1989، ص 7.

(2) معجم اللاهوت الكتابي، مادة: (دم).

ولا أن تدفن فيه، وقد يفعله بعض الناس جهلاً منهم»[1].

ويفسّر ابن قيم الجوزية فساد طهارة الأغلف وعدم صحة صلاته بقوله: «إن الأغلف معرّض لفساد طهارته وصلاته، فإنّ الغلفة تستر الذكر كله فيصيبها البول، ولا يمكن الاستجمار لها، فصحة الطهارة والصلاة موقوفة على الختان»[2]. هكذا يتنزل الختان بما ينزله من قطرات دم عند حدوثه من شعائر الدين الإسلامي وبه يقع التفريق بين المسلم وغير المسلم، حتى إذا وُجد مختون بين جماعة قتلى غير مختونين صلّي عليه ودُفن في مقابر المسلمين[3]، وإن كان ما ادعى في المقتول مردوداً لأن اليهود وكثيراً من النصارى يختتنون، غير أن دلالة الختان في الفكر الإسلامي تظلّ في انسيافها الديني تعبيراً عن معنى الطهارة المستوجبة لصحة الصلاة وأيضاً علامة حسية تدل على معنى الانتماء إلى الإسلام، وهو ما تضمّنته دلالة الختان في الفكر الديني اليهودي والفكر الديني المسيحي، إذ تحوّل دم الختان من علامة عهد وانتساب لليهودية إلى علامة حسّية تجسّد الدخول في الدين الإسلامي، كما تحول دم الختان إلى معمودية في المسيحية تعبر عن انتماء ديني مقترن بمعنى التطهر من الخطايا حتى لكأن الختان الدموي واحد في الأديان السماوية من جهة دلالته ووظيفته

---

(1) محمد بن أحمد ابن حزي، قوانين الأحكام الشرعية، دار العلم للملايين، بيروت، 1979، ص 214.

(2) ابن قيم الجوزية، تحفة المودود بأحكام المولود، الجزء الخاص بالختان، ص 287.

(3) انظر أحمد بن علي بن حجر، فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري، إدارة البحوث العلمية، الرياض، د. ت، ج 10، ص ص 341-342.

﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾[1]، في حين أرست المسيحية تصوراً جديداً يعترف بتضحية المسيح في سبيل شعبه، فلا توجب تقديم الذبائح الدموية على نحو ما هو موجود في التوراة وفي القرآن، ولا توجب دم الختان على النحو الذي نصّت عليه شريعتا «موسى» و«محمد» وإنما حصرت مفهوم التضحية في مثال المسيح[2] تكفيراً عن خطايا رعاياه[3]، واستبدلت دم الختان بالمعمودية لإدراك الخلاص والطهارة بخلاف التوراة والقرآن اللذين استحال فيهما دم الختان رمزاً للطهارة وعلامة عهد ودخولاً في دين الله أفواجاً وخروجاً من كل انتساب إلى الوثنية، كانت فيه الأنثى مُبْعَدة عن هذا الميثاق الرباني إمّا بصريح العبارة وإما بإيماء الإشارة، وربما يعزى ذلك إلى ما تتعرض إليه حواء من حالات مستمرّة لتدفق دماء الحيض والنفاس والاستحاضة.

---

(1) الحج 22: 37.

(2) انظر سفر رومیه 6: 23.

(3) انظر سفر اللاويين 17: 11.

التواصل والاتصال بالذات المتعالية، وهي أيضاً وسيلة لربط العالم الإنساني المرئي والمحسوس بالعالم الغيبي والروحاني، وهو ارتباط قائم على الخوف والرهبة، وما سفك الدم قرباناً للإله إلا تهيُّب من قدرة القوى الغيبية على إلحاق الضرر، وما القربان إلا «العامل الرئيس في بداية الأديان»[1]. ولئن كان دم القربان من جهة أصل النشأة يعود إلى المجتمعات البدائية استجابة لحاجة بشرية تولّدت من رغبة التزلُّف إلى الآلهة لدرء غضبها وتحت طائلة الخوف والرهبة، فلقد نمّت هذه الظاهرة في الأديان الكتابية وخاصة اليهودية والإسلام باعتبارها إلزاماً إلهياً وركناً من أركان العبادة لا يستقيم الإيمان إلا بها وبها يضمن المؤمن صفة الإخلاص لدينه ولربه، فاستحال القربان الدموي «جزءاً مهماً من عبادة العبرانيين، بل رافق عبادتهم من أول نشأتها»[2].

وقد توصلنا في هذا الفصل الأول إلى أنّ العقيدة الإسلامية لم تختلف جوهرياً عن اليهودية من جهة الالتقاء في التشريع لظاهرة الدم القربان واكتسابها أبعاداً دينية، فتأسست بذلك علاقة دموية جديدة بين العابد والمعبود في «القرآن» وإن تشابهت مع ما ورد في نصوص «التوراة»، ولئن استعاض «القرآن» بالدم الحيواني عن الدم البشري فقد أنشأ وظائف جديدة للدم المسفوك على عتبات المقدس ولم يعد مقتصراً على معنى التكفير والتطهير، بل تجاوزه إلى الاستئناس باستعادة حدث تاريخي إبراهيمي لتقوية الوازع الديني لدى المؤمن،

---

(1) عبد الغني مندكالي، «المقدس المصطلح المفهوم»، الفكر العربي المعاصر، عدد 118-119، صيف 2001، ص 69.

(2) مجموعة من اللاهوتيين، قاموس الكتاب المقدس، دار الثقافة، ط 8، 1992، مدة: (قربان).

الفصل الثاني

ميثولوجيا الدم
ثنائية القداسة والنجاسة

تصدير

«جَسَدِي مَأْكَلٌ حَق وَدَمِي مَشْرَبٌ حَق، مَنْ يَأْكُلْ جَسَدِي
وَيَشْرَبْ دَمِي، يَثْبُتْ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ»

يوحنا 6: 56-57.

مقدمة الفصل

يهتم هذا الفصل من رسالة البحث بدراسة ميثولوجيا الدم ومتابعتها بالتحليل من خلال النظر في ثنائية القداسة والنجاسة للدم داخل النصوص المقدسة، وسنحاول تقصّي تجليات هذه الثنائية من جهة وكيفية التعبير عن هذه المعاني دينياً من جهة أخرى، وسنتناول ذلك من خلال عنصرين أساسيين أولهما الدم المقدس الموزّع على قسمين هما دم الخلاص ودم الشهادة في سبيل الرب وثانيهما الدم المدنس النجس الموزع هو الآخر على قسمين هما دم الجريمة ودماء الحيض والاستحاضة والنفاس. وسنعمد في هذا الفصل إلى البحث في عناصر التعاقد والتفارق بين نصوص الديانات الكتابية في مستوى التعامل مع مفهوم الدم بُبعديه المقدس الطاهر والمدنّس النجس من خلال استقراء هذه النصوص والتكشف عن مدلولاتها ومضامينها ثم تطويعها لتنسجم مع العناصر التبادلية المدرجة في هذا الفصل، ذلك أن متابعة جريان الدم في مجرى النص الديني لا يخلو من إشكالات منهجية ومعرفية لعلّ أكثرها إرباكاً الاعتبار القائل بأنّ الدم إنما هو استعادة للعلاقة مع المطلق الغيبي وتجسيد في أشكال حسية على الأرض، حيث يصير مقدّساً بدعم فكرة الخلاص بتجلياتها الدينية

المختلفة أو متحققاً بواسطة الموت في سبيل الله، كما يصير مدنساً إذا ما تعلّق بسفك دم الكائن البشري بغير حقّ أو ارتبط بأحوال تُصيب المرأة وتختزل عقوبة إلهية جراء الخطيئة الأبدية.

وإن هذا التنوع في مقاربة الدم مقدساً ومدنساً يقتضي اتباع منهج علمي في الدراسة لا سيما أن الفوارق بين النجاسة والقداسة في النصوص الدينية قد تضيق وقد تتّسع، وهو ما يستوجب التعامل مع الشواهد النصية المقدسة بأكثر صرامة وتشدداً، ولن نعالج موضوع هذا الفصل بأدوات فقهية، بل سنكتفي بالإشارة إليها دون إغفالها وتوظيفها في سياق المقارنة بين الأحكام والتشريعات المثبتة في نصوص الأديان السماوية الثلاثة والمتعلقة بثنائية المقدس والمدنس المتصلة بمفهوم الدم.

1- الدم المقدس

تطرح دراسة الدم المقدّس إشكالات عديدة يتصل بعضها بالمفهوم وبعضها الآخر يتعلق بالدلالة والمضامين، ولعل أكثر المفاهيم والمصطلحات التي أثارت جدلاً كبيراً في المباحث العربية والغربية هي تلك التي تناولت بالتعريف المقدس لتنبسه بحقول معرفية ودلالية عديدة، إذ لا يوجد «شيء أقل دقة منه»[1]، لكونه يتسع لعديد المعاني ويسع عديد الإحالات والدلالات. وقد أجمعت عديد المراجع التي تناولت النظر في موضوع المقدس على تعريفه بالخلف

(1) يوسف شلحد، بنى المقدس عند العرب قبل الإسلام وبعده، تعريب خليل أحمد خليل، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط 1، 1996، النص الفرنسي، ص 38.

أي النقيض عبر إقامة علاقة مفهومية مضادة بين المقدس ونقيضه المدنس أو الدنيوي (Le sacré ≠ Le profane) في إطار العلاقة بين المقدس الدنيوي والمحلل والمحرم على نحو ما ذهب إليه كل من إيميل دوركهايم (E. Durkheim) وأ. دوما (A. Dumas) ومرسيا إلياد (M. Eliade)، «فالمقدس لا يلتقي بالمدنس إلا لكي ينتفي أحدهما ويظلّ الآخر قائماً، وبذلك يتشكّل كلّ طرف بوصفه نظاماً قائماً خالصاً ومتجانساً ومختلفاً ومعارضاً وموازياً للطرف الآخر»[1]، وقد يدخل مفهوم المقدس في سياقات متداخلة واستعمالات مختلفة غير متجانسة، وهو ما يجعل الباحث في حلقة خارجة عن دائرة الفهم[2]. أما الدراسات العربية فقد ظلت واعية بتيثّقها من مرجعيات غربية بما استعادته من تعريفات وترجمات في هذا الشأن، والتعريف اللغوي لكلمة مقدس تعني «الطاهر المنزه من العيوب والنقائص»[3]، ويُقال: «قدّسه الله طهّره وبارك عليه»[4].

ويرتبط التعريف اللغوي لكلمة المقدّس بدلالة معنى الطهر والكمال، ولعله المعنى الأكثر شيوعاً واستعمالاً في النص القرآني الذي فيه تواترت مادة (ق. د. س) عشر مرات بصيغ متنوعة

---

(1) نور الدين الزاهي، «المقدس في الثقافة العربية الإسلامية»، مجلة الفكر العربي المعاصر، 108/109، شتاء 1999، ص 29.

(2) انظر، ما يقول مرسيا إلياد (M. Eliade) في هذا الشأن مثلاً في:
Traité d'histoire des religions, Payot, Paris, 1975, p. 15.

(3) ابن منظور، لسان العرب، مادة (ق. د. س).

(4) وجدي محمد فريد، دائرة معارف القرن العشرين، دار المعارف، بيروت، ط 3، 1971، مجلد 7، ص 652.

مع إيميل دوركهايم قد جسّدت محاولات جادة وجريئة في رفع التداخل بين المقدس والدنيوي، فقد اعتبر دوركهايم أنّ المقدس لا يعدو أن يكون المجتمع نفسه ليتجلى في كلّ شكل من أشكال الكائنات الطوطمية[1]. في هذا السياق يبرز التصور الذهني الجديد للمقدس، فلم يعد «مفهوماً تحليلياً، بل حقيقة يقدر الإنسان على تجريبها»[2].

هكذا ينبدى المقدس بما يحتويه من أصول ميتافيزيقية غيبية في علاقة مع ما هو أرضي مادي ومحسوس، إذ لكلّ مقدس جذور علوية لها روابط بتجارب إنسانية من جهة ممارسات الشعائر والطقوس. فهل للدم أبعاد قدسية تتحدد في سياق ما يمارسه المؤمن من تضحيات من أجل التقرب من الله؟ وهل قداسة الدم تكتسب شرعيتها من الشعائر ذاتها أم من الوجهة المتعالية التي تصبو إليها؟ وكيف يمكن أن نبرر دينياً قداسة دم مسفوك لا ينمّ إلا عن العنف والقتل والحرب ليستحيل وجهاً من وجوه تحقيق النجاة وإدراك الخلاص؟ وهل صاغت النصوص الدينية للرسالات السماوية تصوراً نموذجاً لقداسة الدم المسفوك خالصاً للإله أم اختصّ كلّ نصّ ديني مقدس بإراقة دمه وشروط إلحاق القداسة به؟

أ- هل بسفك الدم ننجو ونخلص؟

إن البحث في معاني الدم ودلالاته في النصوص الدينية ورد

(1) E. Durkheim, *Les formes élémentaires de la vie religieuse*, 2ème édition, PUF, Paris, 1990, pp. 428-431.

(2) André Dumas, «Sacré», *Universalis*, Paris, 1996, corpus 20, p. 45.

وتصريفات مختلفة[1]. وتشير هذه التصريفات اللغوية إلى حقول دلالية تتصل أحياناً بالذات الإلهية ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾[2]، وأحياناً أخرى تحيل على الملك جبريل ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾[3]، ولعلّ قداسة جبريل من قداسة الذات الإلهية، فاستقام تعريف المقدّس في النص القرآني موجهاً إلى معنى الطهارة والعظمة نقيضاً للمدنس بما هو يحيل على «الوسخ ونحوه حتى في الأخلاق»[4].

وقد تنوعت مظاهر القداسة لتشمل الأزمنة والأمكنة والإنسان والطبيعة الفيزيائية باعتبار أن المقدس يمثّل ظاهرة كونية جامعة ومانعة بين عالمين هما عالم السماء وعالم الأرض يتباعدان ويتقاربان في إطارٍ من الجدل القائم بين المقدّس السماوي والمقدّس الأرضي الذي يحاكيه ومنه يستمدّ مشروعية وجوده، وهو ما يتعارض مع الدراسات التي نادت بالفصل نهائياً بين المقدس والدنيوي وقالت بعلاقة التناقض بينهما[5]، وهو ما رفضه ميرسيا إلياد بقوله: «المقدس مختلف نوعياً عن الدنيوي، فهو يتجلى بكيفيات مختلفة في عدة أماكن من العالم الدنيوي»[6]. ولعلّ مدارس علم الاجتماع وخاصة

---

(1) للتوسع انظر حمادي المسعودي، متخيل النصوص المقدسة في التراث العربي الإسلامي، دار المعرفة للنشر، ط 1، 2007، ص 24.

(2) الحشر 59: 23.

(3) المائدة 5: 110.

(4) ابن منظور، لسان العرب، مادة: (د. ن. س).

(5) للتوسع انظر:

M-M Thiollier, *Dictionnaire des religions*, Marabout, 1982, p. 26.

(6) M. Eliade, *Traité d'histoire des religions*, p. 38.

البَشَرِ»[1] أو قوله: «إن الله خَلَقَ مِنْ دَمٍ وَاحِدٍ كُل أُمةٍ مِنَ النَاسِ»[2].

يتّضح لنا ممّا تقدّم من الشاهدين أن تعاليم المسيحية في نيل الخلاص تجاوز الخطيئة التي انتشرت في العالم باعتبار أن هذه السلالة من أصل دموي واحد، ويجمع بينها الرابط الدموي، وما تجسد المسيح وموته إلا من أجل جنس بشري واحد، وهنا يستحيل الدم في النص الإنجيلي عنصراً أساساً في الدلالة على معنى الوحدة البشرية المادية التي تجمع كافة البشر وتوحّدهم في أصل واحد عبر الرابط الدموي الجامع بينهم، وهو جمع يعطي لمعنى الخلاص تصوراً آخر وبُعداً دلالياً محكوماً بفكرة تورات الخطيئة، ذلك أنّ القرابة الدموية التي شملت آدم ببقية البشر قد فرضت على البشرية تحمُّل أوزار الخطيئة التي اقترفها أصلهم الأول الممثل في آدم وحواء، «فالخطيئة قد ملكت على العالم نتيجة خطيئة آدم لأن البشرية كانت واحدة فيه»[3]. وهكذا كان عذاب الصليب فكرة محملة بتخليص البشرية التي وحّد بينها الدم من الخطيئة، حتى لكأن الخلاص المحصور في المغزى العميق لتقليد تناول الخبز وشرب الخمر جماعة، إنما هو الوسيلة المثلى ليتجاوز من خلالها الجنس البشري الموحد والمتوحد القائم على قرابة دموية جرم الخطيئة، «وإذا أمعنا النظر في التصميم الإلهي على ضوء رسائل «بولس» نرى أن الله يريد أن لا نبحث عن الخلاص والقداسة إلا في دم ابنه لأنه فادي سواء ولأن موته فاعلية

---

(1) رومية 3: 12.

(2) أعمال الرسل 17: 26.

(3) انفس فهيم عزيز، المدخل إلى العهد الجديد، دار الثقافة المسيحية، القاهرة، د. ت، ص 386.

مقترناً بعديد المفاهيم الكبرى التي شكلت نسقاً دلالياً في فهم العقيدة وحقلاً معنوياً في تدبُّر سُبُل انتظامها وكيفيات اشتغالها. ومن أبرز المفاهيم المقترنة بمفهوم الدم مصطلح النجاة الذي توزَّع على نصوص الديانات السماوية بأشكال مختلفة وبأساليب مغايرة، ذلك أن المسيحية اختلفت عن اليهودية والإسلام في كيفية نيل الخلاص اختلافاً كبيراً. فالإسلام قد حدَّد النجاة في أعمال البرّ والصلاح والصوم والصلاة والحج ودفع الصدقات للفقراء والمساكين، ثم ينتظر المؤمن بعد ذلك الرحمة من الله إما أن يُدخله الجنة وإما أن يُلقي به في الجحيم، في حين حدَّدت اليهودية تحقيق الخلاص بمدى حفظ المؤمن لنواميس شريعة موسى والعمل بأحكامها وعدم الحياد عنها، غير أن المسيحية قرنت معنى الخلاص ونيله بمفهوم الدم، ويتجلى ذلك في الجواب الذي اقترحه «بولس» في رسالته إلى أهل «روميه»، عندما كرر قوله بأن الإيمان هو: «الإِيمَانُ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ»[1] و«الإِيمَانُ بِدَمِهِ»[2]، فالخلاص المسيحي يقوم على أساس وحدة الجنس البشري بما أن البشر من أصل واحد، وهذا الأصل هو آدم وحواء، والخطيئة المنسوبة إليهما نتيجة أكلهما من الشجرة المحرّمة قد توارثتها سلالة البشر جيلاً فجيلاً من بعدهما، وبذلك فإن البشر مخطئون لأنهم متوالدون من ذلك الأصل، والتوالد يعني تأسيساً للروابط الدموية الممكنة والجامعة بين أفراد السلالة بدليل قول بولس: «بِإِنْسَانٍ وَاحِدٍ دَخَلَتِ الْخَطِيئَةُ إِلَى الْعَالَمِ وَالْمَوْتُ نَتِيجَةً لِتِلْكَ الْخَطِيئَةِ اجْتَازَ إِلَى كُلِّ

(1) روميه 3: 22-26.

(2) روميه 3: 25.

وسيطة تصبح مقدسة طالما أنها أتاحت للمجموعة أن تجد السلام بقتيل لن يثأر له[1].

ولئن نادت اليهودية بالذبائح الدموية للتكفير عن الخطيئة وأقرت الختان الدموي لاستيفاء شروط الإيمان والدخول في شريعة موسى، فلقد حدّدت المسيحية شروط الإيمان وتحقق الخلاص بالمعمودية و«بالعشاء الرباني» الذي يتناولهما المسيحي بالشكر تذكراً لموت المسيح الذي قدّم جسده ودمه فداء للبشرية وتنفيذاً للوصية التي أوصى بها أتباعه من بعده، «اصْنَعُوا هَذَا لِذِكْرِي»[2]، ويسمى هذا التذكر في «العهد الجديد» من الكتاب المقدس «عشاء الرب»[3] كما يسمى: «مَائِدَةَ الرب»[4] و«كَسْرَ الْخُبْزِ»[5] و«كَأْسَ الْبَرَكَةِ»[6]، بينما المسيحيون في العصور الأولى يطلقون عليه عبارة «أفخارستيا» أي الشكر، لأن الصلاة المرفوعة للرب أثناء العشاء الرباني تكون كلها شكراً واعترافاً بالفداء.

ويمثل «العشاء الرباني» في الضمير الديني المسيحي خبزاً وخمراً تعود عادة تناولهما إلى العادات التي كانت مألوفة لدى اليهود قديماً حين كانوا يتناولون الخبز والخمر عند تقديم التعازي والمواساة لمن مات له قريب أو فقد صديقاً، وقد كان الرب ينهى تلاميذه عن ممارسة

---

(1) انظر: René Girard, *La violence et le sacré*, p. 11.

(2) لوقا 22: 19.

(3) 1 كورنثوس 11: 20.

(4) 1 كورنثوس 10: 16.

(5) أعمال الرسل 2: ؟.

(6) 1 كورنثوس 10: 16.

عجيبة»[1]. وهذا النوع من الفداء تحقق بالدم كي تغفر الخطيئة الأبدية التي لا يمحوها إلا تقديم المسيح نفسه فدية دموية للعالم: «وَفِي الْغَدِ نَظَرَ يُوحَنَّا يَسُوعَ مُقْبِلاً إِلَيْهِ فَقَالَ: هُوَ ذَا حَمَلُ اللهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيَّةَ الْعَالَمِ»[2]، لتتأسس مشروعية دينية مسيحية تقوم على الخلاص للعالم بالفداء بعد أن قدّم المسيح نفسه ضحية لتكفير خطيئة البشرية، فكان صلب المسيح تكفيراً عن خطايا البشر: «إِنِّي أَقُولُ لَكُمْ إِنَّكُمْ لاَ تَرَوْنَنِي مِنَ الآنَ حَتَّى تَقُولُوا: مُبَارَكٌ الآتِي بِاسْمِ الرَّبِّ. ثُمَّ خَرَجَ يَسُوعُ مِنَ الْهَيْكَلِ»[3].

إن المسيح ضحى بنفسه وبجسده من أجل التكفير عن خطيئة شملت البشرية عامة دون استثناء وهو ما يتعارض مع ما نصّت عليه نصوص العهد القديم وما ذهبت إليه الشريعة الموسوية السابقة زمنياً وتاريخياً للمسيحية اللاحقة بها والتي قطعت نهائياً مع الموروث الديني اليهودي الذي نصّ على حاجة الإله إلى الدماء البشرية والحيوانية، فالذين لا يؤمنون بتعاليم اليهود وجب تقديمهم قرابين مقدّسة إلى الإله الأعظم على نحو ما شهدته المجتمعات البدائية واستلهمته فيما بعد الديانات الكتابية لإعادة صياغة مرجعيتها الدينية عبر سفك الدماء وإراقتها في مباهج احتفالية وشعائر طقوسية لضمان الاستمرار في الحياة وإدراك الخلود، وذلك بتحويل العنف إلى ضحية

---

(1) ألفس دوم كلومبيا مرميون، المسيح حياة النفس، ترجمة المطران نصر الله صفير، د. ت، ص 85.

(2) يوحنا 1: 29.

(3) متى 23: 39؛ 26: 1. وهو ما قيل في آخر مواجهة حدثت بين المسيح والكهنوت اليهودي.

فرعون[1] ليتحول هذا الخلاص في المسيحية تكفيراً عن الخطيئة الأبدية، وقد صيرهم أبراراً أهلاً للوجود[2]. فالمسيح تحمّل عذاب الخطيئة بمفرده وبالنيابة عنهم جميعاً، ثم إن الآلام التي تكبّدها عندما كان معلقاً على الصليب والتي جعلته يصرخ قائلاً: «إيلي إيلي لَمَا شَبَقْتَنِي - إِلَهِي لِمَاذَا تَرَكْتَنِي»[3] لم تكن جسدية جراء الصلب وإنما كانت آلام الكفارة التي استحقّتها البشرية إلى الأبد وتحمّلها المسيح بمفرده «ثُمَّ أَخَذَ الْكَأْسَ وَشَكَرَ وَأَعْطَاهُمْ قَائِلاً: اشْرَبُوا مِنْهَا كُلُّهُمْ وَقَالَ لَهُمْ: هَذَا هُوَ دَمِي الَّذِي لِلْعَهْدِ الْجَدِيدِ الَّذِي يُسْفَكُ مِنْ أَجْلِ كَثِيرِينَ»[4]. وربما كان وجه الشبه بين الدم والخمر هو أنهما يحملان اللون الأحمر وكلاهما حياة للجسم الذي يجري فيه، فالخمر هي حياة الكرمة والدم هو حياة الجسد إضافة إلى أن المسيح شبه نفسه بالكرمة[5]، وسميت عصارة الكرمة والعنب بالوحي «دَمُ الْعِنَبِ»[6]، فتأسست في المسيحية صورة الفداء من خلال الجمع بين مشهدين أساسين هما صورة «العشاء الرباني» الذي توفر على خبز وخمر وصورة عملية الصلب التي أفصحت بشكل حسي عن معنى تضحية الواحد من أجل المجموعة، فتحول الخبز إلى جسد المسيح مثلما تحوّل الخمر إلى دمه «اشْرَبُوا مِنْهَا كُلُّكُمْ لِأَنَّ هَذَا هُوَ دَمِي»[7]، وفي ذلك تعبير واضح

(1) انظر سفر الخروج 12: 13-17.
(2) انظر رومية 5: 1.
(3) متى 46: 27.
(4) مرقس 14: 23-24.
(5) انظر يوحنا 15: 1.
(6) التكوين 49: 11؛ التثنية 32: 14.
(7) متى 26: 38.

هذه العادة لاتّقاء شرّ البلية واستبعاد توقع حدوثها[1]، وفي عيد الفصح كان اليهود يأكلون مع خروف الفصح فطيراً ويشربون خمراً[2]. ويعود استعمال اليهود للخبز والخمر في المناسبات والأعياد إلى أنهما كانا الطعام الأساسي الذي عليه يعتمد السكان اليهود قديماً، ويتّضح هذا الرأي في الآيات التالية من «العهد القديم»، «وَكَثْرَةُ حِنْطَةٍ وَخَمْرٍ»[3]، «حَتى آتِيَ وآخُذَكُمْ إلى أَرْضٍ مِثْلَ أَرْضِكُمْ أَرْضِ حِنْطَةٍ وَخَمْرٍ أَرْضِ خُبْزٍ وَكُرُومٍ»[4] «وَيَجْرُونَ إلى جُودِ الربِ عَلى الحِنْطَةِ وَعَلى الخَمْرِ»[5]. ولعل الخبز والخمر أو «الخُبْز وَالخل»[6] كانا يُستعملان لديهم بدلاً من الخبز والماء، كما لم يكن الخمر المستعمل في عيد الفصح من النوع المسكر لأنه من غير المسموح وجود أي نوع من الخمير في هذا العيد[7]، وإنما هو عصير العنب الطازج قبل أن يعتريه تخمير، وفي ذلك تعظيمٌ وتقديسٌ لعيد الفصح الذي تبدى رمزاً يشير إلى موت المسيح كفارة عن البشرية الخاطئة، فكأنّ دمه المقدس دلالة على الخلاص الذي لا يتحقق في اليهودية إلا بالأضحية الدموية التي كان يمثلها خروف الفصح لدى اليهود، وهو اعتراف بالإحسان الذي أتاه الرب لشعبه حين خلصهم من الهلاك وأعتقهم من عبودية

(1) انظر حزقيال 24: 17؛ إرميا 16: 6-7.
(2) انظر لوقا 22: 18.
(3) التكوين 27: 28.
(4) إشعياء 36: 17.
(5) إرميا 31: 12.
(6) راعوث 2: 14.
(7) انظر سفر الخروج 12: 13.

التي كرّست ذكرى القتيل الوحيد الذي أسس البشرية[1]، وقد يتفق الفكر الإسلامي مع الفكر المسيحي في وقوع آدم وحواء في الخطيئة ويتفقان في معنى «الكفارة» التي تفيد ستر الإثم وتغطيته، فلا يعود بحسب ضد مرتكبه، قال الراغب الأصفهاني: «الكفارة ما يغطي الإثم والتكفير ستره وتغطيته حتى يصير بمنزلة ما لم يعمل، ويقال: كفرت الشمس، النجوم سترها»[2].

غير أن المسيحية تفردت عن الإسلام واليهودية بأن جعلت المسيح يقدم نفسه فداء للبشرية بخلاف ما ذهبت إليه اليهودية والإسلام إلى أن نجاة الإنسان كامن في تقيده بالشريعة الموسوية لليهودي والشريعة المحمدية للمسلم، ذلك أن دم المسيح صار كفارة أعتق بها العالم وخلّصه من لعنة الشريعة ومن أسرها: «إِنَّ الخَطِيئَةَ لَنْ تَسُودَكُمْ لأَنَّكُمْ لَسْتُمْ تَحْتَ الشَّرِيعَةِ، بَلْ أَنْتُمْ تَحْتَ النِّعْمَةِ»[3]. ودحض الشريعة في «سفر رومية» لا يعدو كونه تخلصاً من الطقوس التي نادت بها الشريعة الموسوية، وقد رأت أنّ قوة الدم التي قدمها العهد القديم تظهر في طبيعة العلاقة التي جمعت بين شعب الله المختار والإله، وهي علاقة قائمة على الالتزام بوصايا الكتاب وشريعة موسى «لأَنَّ مُوسى أَخَذَ دَمَ العُجُولِ، وَالتُّيُوسِ وَرَشَّ الكِتَابَ نَفْسَهُ

(1) R. Girard, *Des choses cachées depuis la fondation du monde*, Grasset et Fasquelle, 1978, p. 33.

(2) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، دار القهرمان للطباعة والنشر، تركيا، 1986، مادة: (كفر).

(3) رومية 6: 14.

عن اشتراكهم في الحياة و«الحَيَاةُ هِيَ فِي الدَّمِ»[1] يعني جدلاً أن وجود الدم في جسم الإنسان دليل على وجوده في الحياة ووجود الحياة فيه، ثم إن المعنى الأكثر عمقاً في هذا السياق هو ما نجم عن سفك الدم من تحقيق للغفران والسلام والتطهير وغيرها من البركات التي حصلت بدم المسيح[2].

إن المسيح بموته على الصليب وضع أساس «العهد الجديد» وأبدع للأشياء معاني ودلالات جديدة تحكمها علاقات غير معهودة أيضاً، «الأَشْيَاءُ الْعَتِيقَةُ قَدْ مَضَتْ هُوَ ذَا الْكُلُّ قَدْ صَارَ جَدِيداً»[3]. ولم يطلب المسيح من أتباعه أن يبكوا عليه مثل الوثنيين الذين كانوا يبكون على «تاموز» و«عشتاروث» بل طلب منهم البكاء على أنفسهم وعلى خطاياهم على النحو الذي قاله لبنات أورشليم من قبل[4]. وهكذا تحققت بفضل كفارة المسيح مطالب عدالة الرب وقداسته إلى الأبد، وبفضل الدم تقدست الحياة طاهرة ومباركة: «هَكَذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ»[5].

إن صورة المسيح على الصليب كأنها إجابة عن سؤال الضحية

---

(1) اللاويون 17: 11.

(2) انظر أفسس 2: 13؛ رومية 3: 24-28؛ يوحنا 5: 24؛ أعمال الرسل 15: 9.

(3) كورنثوس 5: 17-19.

(4) انظر لوقا 23: 28.

(5) يوحنا 3: 16.

وَجَمِيعَ الشَّعْبِ قَائِلاً: هذَا هُوَ دَمُ الْعَهْدِ الَّذِي أَوْصَاكُمْ بِهِ»[1]، في حين قدم «العهد الجديد» للدم صورة الكفارة من جهة تقديم الرب حياته فداء للبشرية «هَذَا هُوَ دَمِي الَّذِي لِلْعَهْدِ الْجَدِيدِ الَّذِي يُسْفَكُ لأَجْلِ كَثِيرِينَ»[2]، وبذلك ترتبط صورة التضحية الدينية في صورة المسيح بحالة الاستنارة الروحية في قلب العابد.

ب- دم الشهيد

لئن كانت قداسة الدم في اليهودية كامنة في جريانه على عتبة المقدس اعترافاً بالذنب ورغبة في التكفير عنه وشكراً واستدراراً للرضا فلقد كان الدم المقدس في المسيحية مردّه إلى المخلّص الذي افتدى البشرية بحياته وقدّم نفسه قرباناً دموياً للتكفير عن الخطية الأبدية للبشر، فكيف تعامل الدين الإسلامي مع مفهوم الدم المقدّس؟ وما هي الحالات التي أضفى فيها على الدم صفة القداسة؟ وهل يُعتبر كلّ مَن مات وسال دمه في حرب ضد غير المسلمين شهيداً ودمه طاهراً مآله الجنة؟

إن الجهاد والشهادة من المواضيع التي تداولها اللسان العربي بالدراسة والتحليل في جميع الحقب التاريخية، فأفرد لها فصولاً من جهة التعرّض لفضائلها وأحكامها بصبغ تمجيدية تقديسية في أحايين كثيرة[3]، ولم تخرج كلمة الشهادة عن معنى الجهاد في العلاقة بين

---

(1) رسالة إلى العبرانيين 9: 19-20.

(2) مرقس 14: 24.

(3) للتوسع انظر ابن أبي زمنين، قدوة الغازي، تحقيق عائشة السليماني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1989 . وانظر أيضاً اسماعيل بن كثير، الاجتهاد =

الشهيد والمجاهد في سبيل الله، «الشهيد هو القتيل في سبيل الله وقد استشهد فلان والاسم الشهادة»[1]. واكتفى الأصفهاني في تعريفه للشهيد بقوله: «الشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم، أولئك يشهدون في تلك الحالة ما أعدّ لهم من نعيم»[2]، ونجد عند صاحب اللسان تعريفاً للشهيد بقوله: «الشهيد الذي يستشهد وهو الحي أي هو عند ربه حي»[3]، ونقف في تتبع مفهوم الشهادة والشهيد على جمع بين معنيين أولهما هو الشهيد الذي يشهد للرسل يوم القيامة على الأمم الغابرة، وثانيهما هو الشهيد الذي قتل في سبيل الله[4]، والنظر في معجم الكتاب المقدس يكشف عن وجود علاقة في الفكر المسيحي بين معنى الشهادة بما هو الحضور ومعنى الشهادة بما هو الموت في سبيل الله[5]. ونظفر في العهد الجديد من الكتاب المقدس باستعمالٍ صريح لمعنى الشهيد الدّال على من يموت في سبيل دينه مثل الآية التي قال فيها بولس: «فَقُلْتُ يَا رَبّ يَعْلَمُونَ أَنِي كُنْتُ أَحْبِسُ وَأَضْرِبُ فِي كُلِ مَجْمَعٍ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِكَ وَحِينَ سُفِكَ دَمُ اسْتِيفَانُوسَ شَهِيدِكَ كُنْتُ أَنَا وَاقِفاً وَرَاضِياً بِقَتْلِهِ»[6]، ومثل آية «وَرَأَيْتُ الْمَرْأَةَ سَكْرَى مِنْ

= في طلب الجهاد، تحقيق عبد الله عبد الرحيم عسلان، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1984.

(1) الجوهري (ت 393هـ)، الصحاح، مادة: (ش. ه. د).

(2) الأصفهاني، الراغب، المفردات في غريب القرآن، مادة: (ش. ه. د).

(3) ابن منظور، لسان العرب، مادة: (ش. ه. د).

(4) نفسه، مادة: (ش. ه. د).

(5) *Vocabulaire de théologie biblique*, article «*Martyre*», Les éditions du Cerf, Paris, 1994.

(6) أعمال الرسل 22: 19.

إن الموت في سبيل الله وفي سبيل إعلاء العقيدة ليس خاصاً بالإسلام، وإنما يشترك فيه مع بقية الأديان السماوية والوضعية لأن الإنسان المتعلق بدينه اليهودي أو المسيحي أو حتى بالأديان الوضعية القديمة يكون مستعداً للتضحية بنفسه في سبيل دينه ومعتقده؛ فدم الشهيد لا يكون طاهراً أو مقدساً في اليهودية إلا إذا كان في سبيل الشريعة تطبيقاً لأحكامها وتخيّراً للموت عوض نقض أوامر الله أو عصيانها، «استعداداً للموت في سبيل الشريعة»[1]. أما في المسيحية فلا يكون دم المقتول خالصاً لله إلا إذا كان مسفوكاً من أجل تعاليم الربّ إذ تكون الشهادة هي الموت من أجل العقيدة[2]. ويتّخذ مصطلح العقيدة في هذا المجال سياق المحاكاة، ويعني جدلاً محاكاة المسيح في محنته، يقول إيناتيوس[3]: «الشهيد هو من يحاكي المسيح في آلامه»[4]، أو محاكاة المسيح في تعرضه للصلب، فيكتسب الشهيد قداسة دموية، «حاول الشهداء محاكاة المسيح من بعده»[5]. وفي ذلك

---

(1) المكابيين الثاني 8: 21.

(2) D. Rance, «Mourir pour sa foi», *Fêtes et scissions*, N° 538, octobre 1999.

(3) إيناتيوس هو أحد رجال الكنيسة المخلصين، كان في نظرهم «رسولاً ورجل دين وشهيداً»، وقد غادر روما من أجل المسيح وقال: «إنه هو الذي أبحث عنه، هو الذي مات من أجلنا» فاعتبر شهيداً معه. للتوسع انظر: J-L. Vial, *Ignace d'Antioche, Eglise d'hier et d'aujourd'hui*, Éditions ouvrières, Paris, 1956, p. 15.

(4) M. Ayyoub, *Martyrdom in Christianity and Islam*, newsletter, N° 14, 1985.

(5) سام كلوسرتر، «الاستشهاد عند اليهود والمسيحيين والمسلمين»، مجلة *IBLA*، عدد 196، سنة 1962، ص 12.

دَمِ الْقِدِّيسِينَ وَمِنْ دَمِ شُهَدَاءِ يَسُوعَ»[1].

ونجد في «العهد الجديد» آيات أخرى تدلّ على معنى الشهادة بما هي الحضور والمكاشفة بالقول: «وَلَمَّا فَتَحَ الْخَتْمَ الْخَامِسَ رَأَيْتُ تَحْتَ الْمَذْبَحِ نُفُوسَ الَّذِينَ قُتِلُوا مِنْ أَجْلِ كَلِمَةِ اللهِ وَمِنْ أَجْلِ الشَّهَادَةِ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَهُمْ»[2]، والمعنى المُراد تأديته في هذا الشاهد هو الشهادة للمسيح التي يمكن تفسيرها بشهادة الإيمان المدعومة بشهادة الدم[3]. لذلك ينتزل مفهوم الشهادة في سياقات دينية مسيحية وإسلامية تتقارب فيها التعريفات وتتباعد بحسب خصائص كل دين وخصوصية كل عقيدة من العقائد السماوية، ونسجّل كذلك حضور هذا المفهوم في التراث الديني اليهودي الذي قد تؤدّي فيه كلمة الشهادة معنى تقديس اسم الله باعتبار أنّ إسرائيل قد مات ليستدلّ بموته على مدى حبه وإخلاصه لله[4]. وبذلك اشتركت الأديان السماوية في المعنى الرئيس الدّال على المقتول في سبيل الله. فهل توحّدت الأحكام في هذه الشرائع السماوية في اعتبار دم الشهيد مقدساً وطاهراً أو تفاوتت نسبة هذه القداسة بين دين وآخر؟ وما هي الاختلافات الكامنة في هذه الأديان الكتابية من حيث الجزاء الموعود بالمنح للشهيد[5]؟

---

(1) يوحنا 17: 6.

(2) يوحنا 6: 9.

(3) *Encyclopedia Britanica*, article «*Martyr*», USA, Août 1976.

(4) S.J. Bonsirven, *Le judaïsme palestinien au temps de Jésus-Christ*, Bibliothèque de théologie historique, Paris, 1934, t. 2, p. 39.

(5) انظر سورة النساء 4: 69. ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾.

المتخيّل الإسلامي حيث تقول «آل عمران»: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[1]، ونقف على المعنى نفسه في ما تقوله «البقرة»: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾[2]. وقد صور لنا «الطبري» ملامح هذه الحياة الجديدة التي يعيشها الشهيد في عالم الموت فإذا هو ينعم بالأكل والشرب، طعامه ثور فيه طعم ثمار الجنة، وشرابه حوت فيه مذاق شراب الجنة[3]، يتمنّى العودة إلى الحياة الدنيا ليُجاهد ويقتل ويُستشهد مرة أخرى ويتضاعف له الجزاء[4].

ولعل هذه الصورة الواردة في التعبير القرآني والمتعلقة بحياة الشهيد في عالم الموت مقتبسة من أصول مسيحية تعترف بحياة الشهداء وإن كانوا أمواتاً، فهم أحياء عند ربهم ينعمون بالخيرات، وإن كانوا في المسيحية في حالة ضجر وانتظار القصاص فإنهم في الإسلام في حالة غبطة وابتهاج واستبشار بمن سوف يلتحق بهم، مع اختلاف المرجعيتين من جهة نوعية الطعام التي هي في المسيحية منابع المياه الحية[5]، في حين هي في الإسلام جامعة لكلّ أنواع المأكولات وأشربة الماء حتى لكأن الإغراء في القرآن والأجر المرتقب من الشهادة في سبيل الله أكثر غلواً وأشدّ تسويقاً منه في العهد الجديد طالما أن

---

(1) آل عمران 3: 169.

(2) البقرة 2: 154.

(3) انظر الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 2001، ج 2، ص 50.

(4) نفسه، ص 49.

(5) انظر يوحنا 7: 12-18.

دعوة إلى الشهادة من أجل تعاليم المسيح، خاصة وأن «استقبال الموت خير من استدباره»[1].

ولم تخرج تعاليم الإسلام عن الموروث الديني اليهودي والمسيحي وإنما استعادته بشكل مقنّن ضبطته بشروط لعلّ أهمها الموت في سبيل الله الذي كان يعني في عصر الدعوة المحمدية نشر الإسلام وإعلاء كلمة الله، وإنْ كان سبيل الله يختلف بين مرحلة الدعوة ومرحلة التأسيس للدولة الإسلامية، غير أنّ السيرة النبوية قد عملت على توسيع دائرة الشهادة دون الاقتصار على المقتول في سبيل الله، فقد روي عن نبي الإسلام «بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره، فشكر الله له، فغفر له، فقال: الشهداء خمسة المطعون والمبطون والغريق وصاحب الهدم والشهيد في سبيل الله»[2]. ونجد عند ابن حنبل تحديداً للشهيد وتعريفاً له بقوله: «القتيل في سبيل الله شهيد والمطعون شهيد والمبطون شهيد، ومن مات في سبيل الله شهيد»[3]. وبهذا يتأسس للدم بُعْد قدسي إذا ما سُفك من أجل الذات المتعالية أو في سبيل الاستجابة لتعاليم الشريعة السماوية. ولكن ما جزاء مَن اختار تقديم دمه ثمناً له واختار الموت بديلاً عن الحياة؟ وهل حافظت مقولة الثواب والجزاء على الدلالة نفسها في مختلف الأديان السماوية أو هي اختلفت وتعددت معانيها ودلالاتها؟

إن الشهيد الذي اشترى الحياة الدنيا بالآخرة حيٌّ يُرزق في

---

(1) جواد علي، تاريخ الجزيرة العربية، مطبعة النفيض، بغداد، 1951، ج 5، ص 402.

(2) مسلم، الصحيح، باب بيان الشهداء، المطبعة المصرية ومكتبتها، د. ت.

(3) ابن حنبل، المسند، حديث 122.

أَمْوَاتٍ بَلْ إِلَهٌ أَحْيَاءٌ»[1]. إلا أن صرخة إشعياء التي نادى فيها بحق الذين جاهدوا وكافحوا وحاربوا وماتوا في سبيل قضية الشعب المختار تعبّر عن معنى الجزاء والثواب الوارد في النص القرآني أو في النص الإنجيلي حين قال: «تَحْيَا أَمْوَاتُكَ، تَقُومُ الْجُثَثُ، اسْتَيْقِظُوا، تَرَنَّمُوا يَا سُكَّانَ التُّرَابِ»[2].

بهذا إذن نتبين أن الانزياحات الحاصلة بين النصوص التأسيسية للديانات السماوية الثلاث من جهة التعامل مع صورة الشهيد الذي يقدّم حياته في سبيل الذات المتعالية ترتدّ نتاجاً للتراكمات الحضارية والثقافية التي استقرت في الضمائر الدينية للأفراد بمختلف دياناتهم وعقائدهم، ولكن يبقى العنصر المشترك بين هذه الديانات التوحيدية واضحاً وجلياً في قداسة الدم المسفوك دفاعاً عن الدين وفي سبيل الله، حتى لكأنّ دم الشهيد همزة وصل بين الدين والدنيا أو بين ما هو مقدّس وما هو دنيوي، وبسبب ذلك يتجلى دم الشهادة فعلاً دنيوياً يكتسي طابعاً قدسياً، «فالاستشهاد بعضي الحادث الدنيوي طابعاً قدسياً وهذه القداسة قد تأخذ شكل الوعد بالجزاء الحسن في الآخرة»[3]، بما أنّ الشهيد «يقايض موته ببقعة في الجنة»[4]، غير أن الإشكال يظلّ قائماً في مستوى تدبّر ماهية الاختلاف بين الدم المُراق في حروب إسلامية كانت موجهة أساساً للفتح والغزو وتوسيع الدائرة الجغرافية

---

(1) المزامير 17: 15.

(2) إشعياء 26: 19.

(3) سام كيمر، الاستشهاد عند اليهود والمسيحيين والمسلمين، ص 12.

(4) جان بودريار، ذهنية الإرهاب، لماذا يقاتلون بموتهم؟ ترجمة بسام حجار، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، 2003، ص ص 30-31.

أرواح الشهداء معلّقة في قناديل في العرش وتجوب حيث شاءت أطراف الجنة[1]، بما هي قد اشترت الحياة الدنيا بالآخرة في سبيل الله.

إننا نتبين من خلال هذا الطرح لعلاقة الدم بالقداسة من جهة النظر في صورة الشهيد ومنزلته في الأديان السماوية أن العلاقة بين طرفي الموضوع الدم والمقدّس إنما هي علاقة تلازم تكون فيها صفة القداسة مستقاة شرعيتها من تعالي الفعل الذي يقوم به المؤمن من أجل تأسيس حقيقة مقدّسة هي الأخرى لا تعدو أن تكون متصوّراً ذهنياً يبقى حبيس المتخيّل الطافح بالجمالي والميتافيزيقي، والكائن في عوالم مفارقة يجاهد المؤمن من أجل أن يشاهد نفسه معنياً بهذا الملكوت المفارق بعدما اكتسب شرعية نزوله ضيفاً عليه بما قدّمه من دم حياته في سبيل إرضاء الله والالتزام بما نصّت عليه تعاليم شريعته.

وفكرة الحياة الأخرى تُعدّ من العقائد التي نادت بها أديان كثيرة في القديم، غير أن اليهودية لم تلتزم بهذه العقيدة وإنما ظلّت فكرة غامضة مقابل انصرافها إلى الاهتمام بشؤون العالم المادي والحسي وإن تجلت في الأطوار الأخيرة من تطور اليهودية، إذ اضطرت هذه الديانة إلى قبول عقيدة قيامة الأموات والحياة بعد الموت، وقد رسخت في عصر شهداء المكابيين[2] «وَبَعْدَ أَنْ يُفْنَى جِلْدِي هَذَا وَبِدُونِ جَسَدِي أَرَى اللهَ»[3]، وإن كان إله بني إسرائيل «لَيْسَ إِلَهَ

(1) للتوسع انظر الطبري، جامع البيان، ج 4، ص 207.
(2) للتوسع انظر حبيب سعيد، أديان العالم، دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية، القاهرة، د. ت، ص 182.
(3) أيوب 19 : 62.

جريمة وعقوبة في آنٍ واحد، وهو السائل العجيب الذي تشتهيه الآلهة في الأساطير القديمة وفي توراة العهد القديم، وبالدم المقدّس تتحقق المغفرة وتُزال آثام الدم المدنس.

وقد أخذ مفهوم النجاسة حيزاً واسعاً من التشريع الديني في الكتب المقدسة وارتبطت صفة النجاسة بالدم ارتباطاً وثيقاً، ومثلما وسمت بعض آيات النصوص الدينية الدم بالطاهر والمقدّس في حالات وسمته أيضاً بالنجاسة في حالات أخرى، إذ مثّل الدم المقياس المعتمد في تحديد تصنيفات بعض الحيوانات. ففي التشريع الموسوي نقف على إباحة هذه الشريعة لاستغلال لحوم البقر والضأن والماعز والإبل والظبي مقابل تحريمه لكل الحيوانات الآكلة للحوم، وعدّتها من صنف الحيوانات النجسة، فهي مقيتة لأنها تأكل الدم، وهي من قبيل الحيوانات والبهائم التي تجترّ، «لاَ تَأْكُلْ رِجْساً ما، هذِهِ هِيَ الْبَهَائِمُ الَّتِي تَأْكُلُونَهَا، الْبَقَرُ وَالضَّأْنُ وَالْمَاعِزُ وَالأَيِّلُ وَالظَّبْيُ وَالْيَحْمُورُ وَالْوَعِلُ وَالتِّيتَلُ وَالْمَهَاةُ. وَكُلِّ بَهِيمَةٍ مِنَ الْبَهَائِمِ تَشُقُّ ظِلْفاً وَتَقْسِمُهُ ظِلْفَيْنِ وَتَجْتَرُّ فِي الْمَا تَأْكُلُونَ»[1]. وقد حرم النص القرآني من الحيوانات بعضها، نقول «المائدة»: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾[2]، وفي تحريم القرآن لأكل الدم تذكير بنصيب إله اليهود من الذبائح الدموية، فالدم وشحم الطير والحيوان مقدّس للرب لا يجوز لأحد من سلالة

(1) التثنية 3: 14-16.

(2) المائدة 5: 4.

للرسالة المحمّدية وبين الدم المُراق في حروب مقدّسة خاضتها المسيحية من أجل استعادة أراضيها واسترجاعها من تحت سطوة المسلمين خاصة[1]؟

2- الدم النجس

إن البحث في معنى النجاسة يرتبط ضرورة بالنظر في معنى الطهارة، ولا شك في أن الطهارة والنجاسة ترتبطان بالعبادات ارتباطاً وثيقاً إذ تنهض النجاسة نقيضاً للطهارة ومرادفاً للمدنس الذي يحيل على معنى «الوسخ ونحوه حتى في الأخلاق»[2]، وإذا كان المقدّس والطاهر يتصلان أساساً بالمتعالي والمفارق فإن النجاسة تبقى صفة أرضية حبيسة العالم السفلي ومرتبطة بالإنسان وبالحيوان بشكل عام، ويجري التمييز في المجتمعات القديمة بين الدم المقدس المحدّد في دم القرابين الموجّهة للإله والدم الدنس المُراق خارج الطقوس القربانية كحالة دم الحيض الذي عبّرت عنه التوراة بأنه لعنة أبدية أصابت المرأة لأن حواء في تفسير الطبري لم تأكل من الشجرة، بل عضّتها، «فعضت حواء الشجرة فدميت الشجرة»[3]، فكان عقابها «فكما أدميت الشجرة فتدمين في كلّ هلال»[4]، وبذلك يكون دم الحيض شاهداً أزلياً وعلامة أبدية على الخطيئة الأولى، فكان الدم

---

(1) للتوسع انظر: Jean Flori, *Guerre Sainte, Jihad, Croisade*, Seuil, Paris, 2002, pp. 263-269.

(2) ابن منظور، لسان العرب، مادة: (د. ن. س).

(3) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج 1، ص 237.

(4) نفسه، ص 237، وانظر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 1، ص 313.

اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1]. أما النجاسة التي تتعلق بالإنسان رجلاً أو امرأة فقد شرّعت الديانات الكتابية الكثير من التشريعات المتعلّقة بدم المرأة في حالات الحيض والاستحاضة والنفاس وما يلحق الدماء من نجاسة تشمل اللباس والفراش وشؤون عملها وعلاقتها الزوجية، وهو ما يمنح هذه النصوص الدينية أبعاداً اجتماعية تُسهم في تنظيم حياة الأفراد وتقنينها بقوانين تستدعي الخضوع والطاعة لأنها صادرة عن ذاتٍ عليا ومفارقة، «يستحيل الدين خضوعاً وطاعة واعترافاً بملوكية قوة علينا»[2].

وتتنزّل صفة النجاسة في النصوص المقدّسة في الدم الجريمة الناجم عن القتل، وقد سنّت الشرائع السماوية تشريعات واسعة ومتعدّدة في هذا المجال، وهي كثيرة في التوراة المدوّنة والتلمود، يصعب حصرها لأنها تبدو نابعة من مقتضى الحال ومجريات الحدث ونوعية الأشخاص الذين ارتكبوا جريمة سفك الدماء، ولعلّ جميع الأديان الكتابية التي حرّمت الدم البشري ترتدّ إلى التقليد القديم الذي ينطوي على مبدأ العين بالعين والسن بالسن، وهي القاعدة الأساسية التي عليها قامت الشريعة البابلية، هذه الشريعة التي تعزى إلى «حمورابي» المشرع الأول لهذه القاعدة وقد استلهمها من شريعة موسى الذي سبق تاريخياً حمورابي وتشريعات البابليين بأكثر من سبعمائة سنة، ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ

(1) الأنعام 6: 145.

(2) انظر قيصر الحجيني، مقال «العنف: المقاربة الأنثروبولوجية»، مجلة كتابات معاصرة، عدد 3، المجلد 8، تموز - آب، 1997، ص 41.

بني إسرائيل أو من النازلين بينهم أن يأكل الدم، «وَكُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ وَمِنَ الْغُرَبَاءِ النَّازِلِينَ فِي وَسَطِهِمْ يَأْكُلُ دَماً أَجْعَلُ وَجْهِي ضِدَّ النَّفْسِ الآكِلَةِ الدَّمَ وَأَقْطَعُهَا مِنْ شَعْبِهَا»[1]. وكل من يتعدى شرائع الله يصير نجساً[2]. ويتضح الدم مكتسباً صفة الدنس وملتصقاً بالنجاسة إذا ما أحال على مخالفة الشريعة أو عدم استيفاء شرط الإجماع في إراقة هذا الدم، وتُعدّ قصة ناقة الله مع النبي صالح من الشواهد القرآنية الدالة على أن عقر هذه الناقة أو نحرها[3] لم يحظَ بالإجماع وإنما اقتصر هذا الفعل على طرفٍ واحد تمثّل في المُشركين ممّا جعل الدم المُراق من الناقة دماً مدنّساً[4] لناقة مقدّسة لا يجوز ذبحها «في طقس احتفالي هو ضرب من مسار فعل»[5].

إنّ التشابه واضح بين اليهودية والإسلام في تحريم استغلال لحوم بعض الحيوانات الموصوفة بالنجاسة ما عدا اختلافاً بسيطاً في الحمل والأرنب، وقد أدخل الفقهاء وعلماء المسلمين عدة أنواع من المحرمات في المأكل والحال أن «الأنعام» كانت صريحة في قولها: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ

(1) اللاويون 17: 10.

(2) انظر سفر صموئيل 1: 24، 140 17: 5.

(3) انظر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ص 241، يرى أن عقر الناقة يعني بدقة نحرها.

(4) للتوسع انظر تركي علي الربيعو، العنف والمقدس والجنس في الميثولوجيا الإسلامية، ص 68.

(5) ليفي شتروس، الفكر البري، ص 273.

العلماء والمفسرين، ففي «تفسير القرآن» لعبد الله الصنعاني، (سئل الإمام علي عن قوله تعالى ﴿رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ فقال: ابن آدم الذي قتل أخاه وإبليس، فوزره سيبقى إلى يوم القيامة)[1].

إننا نتبيّن أنّ الدم الناجم عن اقتراف جريمة القتل يُعدّ من الكبائر التي حرّمتها نصوص الأديان السماوية، «تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وحروف المعجم في إحدى وعشرين ورقة»[2]، ولئن وردت جريمة قتل قابيل لأخيه هابيل مرتبطة بدافع الغيرة والحسد والحقد والكراهية فقد تعدّدت دوافع الجرائم الدموية مع تنامي الحاجات البشرية في التاريخ الإنساني الذي شهدت صفحاته جرائم قتل في الحضارات القديمة بدوافع الرغبة في الانتقام أو التخلّص من الأعداء أو القضاء على الخصوم. وقد صوّر الباحث «وول ديورانت» المجتمعات البدائية ملحقاً بها عديد الصفات والنعوت، فقد اعتبر المجتمع البدائي، «قاسياً قد علّمته الحياة استعداده للضرب دائماً وأن يكون له قلب يستسيغ القتل الطبيعي، وكانت النزاعات لا تُفضّ إلا بقتل أحد المتنازعين»[3]. وبذلك اشتركت التشريعات السماوية في

---

(1) عبد الله الصنعاني، تفسير للإمام عبد الرزاق بن همام (126-211هـ)، تفسير القرآن، تحقيق مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد، الرياض، د. ت، ج 3، ص 187.

(2) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، مصر، ط 4، د. ت، ج 1، ص 151.

(3) وول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود، دار الجيل، بيروت، 1988، ص 91.

وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ﴾[1].

وقد فصّلت الشريعة الموسوية القول في دم الجريمة والقتل كما نهت المسيحية عن سفك دماء الكائن البشري كشأن التشريع الإسلامي في النهي القاطع عن القتل وإراقة الدماء بغير حقّ، إلا أنّ هذا التواشج بين هذه النصوص في تحريم الجرائم الدموية لا يعني البتة اتفاقاً كلياً في جميع التشريعات وإنما هناك عديد الانزياحات التي تميّز كل شريعة سماوية من أخرى في تناولها لنجاسة دم الجريمة والدنس الذي يطفو على سطح هذا الجرم الإنساني.

أ- الدم الجريمة

مثلت الجريمة الأولى التي ارتكبها قابيل بحق أخيه هابيل فاتحة عهد لسفك الدم وإراقته إلى حدود فقدان الحياة، وهي اللحظة التاريخية التي فيها ارتُكبت أوّل جريمة في تاريخ البشرية ﴿لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[2]. وقد عمدت نصوص التشريع السماوي إلى ضبط هذه الجريمة وتدبُّر تداعياتها وعقوبتها على اختلاف المرجعيات الدينية، ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[3]، وتتضح ملامح التشريع السماوي لتحريم جريمة القتل وسفك الدماء في نصوص الديانات الكتابية في بعض نصوص

(1) المائدة 5: 45.
(2) المائدة 5: 28.
(3) المائدة 5: 32.

تحريم القتل وتحريم الجرائم الدموية حتى لكأنّ قصة قابيل وهابيل قد بُنيتها النصوص المقدسة لتكون القصّة التي عليها انبنى حكم التحريم في التشريع السماوي. فالنصّ التوراتي يشدّد على حُرمة الدم وفق شريعة موسى، ويُعطي لصاحب الحق في القصاص من القاتل، «وَلِيّ الدم يَقْتُلُ القَاتِلَ حِينَ يُصَادِفُهُ»[1]، وفي ذلك ترهيب من فعل القتل وإراقة الدماء، أو لعله حرص التوراة على تخويف من تسوّل له نفسه أن يتعمّد القتل وسفك الدماء، «لاَ تُدَنِّسُوا الأَرْضَ الَّتِي أَنْتُمْ فِيهَا لأَن الدمَ يُدَنِّسُ الأَرْضَ، وَعَنِ الأَرْضِ لاَ يُكَفَّرُ لأَجْلِ الدم الذي سُفِكَ فِيهَا إِلاَّ بِدَمِ سَافِكِهِ، وَلاَ تُنَجِّسُوا الأَرْضَ الَّتِي أَنْتُمْ مُقِيمُونَ فِيهَا الَّتِي أَنَا سَاكِنٌ فِي وَسَطِهَا»[2]. وقد فصلت نصوص التوراة القول في الحدود ومقاييسه وضوابطه في علاقته بنوعية الجريمة وما تقتضيه من حكم صادر شرعاً عن الشريعة الموسوية[3]، فقد جاء النهي في أسفار «العهد القديم» عن ارتكاب جرائم القتل الدموية بغير حق، وتحريم إراقة دم الإنسان يُعزى إلى الالتزام بالأمر الإلهي الداعي إلى إعمار الأرض والمحافظة على النفس البشرية ما لم تقترف ذنباً في حقّ الذات الإلهية التي خلقت الإنسان على صورتها، يقول التكوين: «سَافِكُ دَمِ الإِنْسَانِ بِالإِنْسَانِ يُسْفَكُ دَمُهُ لأَن اللهَ عَلَى صُورَتِهِ عَمِلَ الإِنْسَانَ فَأَثْمِرُوا أَنْتُمْ وَأَكْثِرُوا وَتَوَالَدُوا فِي الأَرْضِ وَتَكَاثَرُوا فِيهَا»[4].

وتبدّى النهي عن ارتكاب الجرائم الدموية في حقّ الإنسان

---

(1) العدد 35: 22.

(2) العدد 35: 34-35.

(3) للتوسع انظر سفر اللاويين 20: 9-21.

(4) التكوين 9: 5-7.

اليهودي في سياقات أخرى على نحو ما ارتبط بمعرض التذكير بنعم الله الواسعة التي أنعم بها على شعب بني إسرائيل وتحذيراً لهم من إراقة الدماء «وَإِنْ أَوْسَعَ الرب إِلَـهُكَ تُخُومَكَ كَمَا حَلَفَ لآبَائِكَ وَأَعْطَاكَ جَمِيعَ الأَرْضِ الَّتِي قَالَ إِنَّهُ يُعْطِي لآبَائِكَ إِذَا حَفِظْتَ كُلَّ هَذِهِ الْوَصَايَا لِتَعْمَلَهَا كَمَا أَنَا أُوصِيكَ الْيَوْمَ لِتُحِبَّ الرب إِلَـهَكَ وَتَسْلُكَ فِي طُرُقِهِ كُلَّ الأَيَّامِ فَزِدْ لِنَفْسِكَ أَيْضاً ثَلاَثَ مُدُنٍ عَلَى هَذِهِ الثَّلاَثِ حَتَّى لاَ يُسْفَكَ دَمُ بَرِيءٍ فِي وَسْطِ أَرْضِكَ الَّتِي يُعْطِيكَ الرب إِلَـهُكَ نَصِيبَكَ فَيَكُونَ عَلَيْكَ دَمٌ»[1]. هكذا حددت شريعة موسى موقفها من الجرائم الدموية بأن نهت عنها وحرّمت دم من كان من شعب بني إسرائيل، وأجازت القصاص من القاتل، «وَإِذَا بَغَى إِنْسَانٌ عَلَى صَاحِبِهِ لِيَقْتُلَهُ بِغَدْرٍ فَمِنْ عِنْدِ مَذْبَحِي تَأْخُذُهُ لِلْمَوْتِ»[2]، إضافة إلى أنّ الأرض تضيق على القاتل بما رحبت.

ويترتب على جريمة القتل الدموية واستفحالها داخل أبناء شعب الله المختار عقوبات إلهية تطالهم جراء مخالفتهم لتعاليم الشريعة بأن هدّدهم بضياع دولتهم ونقص ملكهم كما في «سفر التثنية»[3] و«سفر اللاويين»[4] و«سفر إشعياء»[5]، فقد توعّدهم بتسليط أقسى أنواع العذاب والرعب وإذلالهم أمام أعدائهم وتشتيتهم في أصقاع

---

(1) التثنية 19: 8-10.

(2) سفر التكوين 4: 12.

(3) انظر سفر التثنية 9: 7-21.

(4) انظر سفر اللاويين 18: 2-30.

(5) انظر سفر إشعياء 5: 11-14.

في العهد القديم وكيف أنها أقنعت ملك الفرس آنذاك بالسماح لليهود بقتل وزيره «هامان» وذبح عشرات الآلوف من بني قومه بمن فيهم الأطفال والشيوخ والنساء بحجّة أن «هامان» ينوي ذبح اليهود. فكان هذا العيد استعادة لذكرى «أستير» وجرائم اليهود ضد الفرس[1]، أما العيد الثاني فهو عيد الفصح «Pâques» في شهر نيسان/ أبريل من كل عام، ويتزامن تقريباً مع أيام عيد الفصح عند المسيحيين، ولئن كانت ذبائح عيد البوريم تُنتقى عادة من الشباب البالغين، إذ يؤخذ دم الضحية ويجفّف على شكل ذرات تُمزج بعجين الفطائر ويقع الاحتفاظ بالباقي للعيد المقبل، فإن ذبائح عيد الفصح تكون عادة من الأطفال الذين لا تزيد أعمارهم كثيراً على عشر سنوات، فيمزج دم الضحية بعجين الفطير قبل تجفيفه أو بعده، واستنزاف دم الضحية ينتهي إلى «الحاخام» الذي يقوم بإعداد الفطير المقدّس ممزوجاً بدم غير اليهود المُعدّ للأكل والباعث على الفرح والسعادة[2].

وقد أوردت بعض المرويات العربية الإسلامية أخباراً عن شدة تعلّق اليهود بإراقة دم غير اليهودي، فنحن نقف مع ابن هشام في «سيرته» على رواية محاولة اليهود قتل نبي الإسلام الذي أمر بغزوهم وأجلاهم إلى خيبر والشام[3]. وقد اقتصرت عبارة «لا تقتل» الواردة

---

(1) للتوسع انظر عبد الرحمان حنبكه، مكايد اليهود عبر التاريخ، دار القلم، دمشق - بيروت، ط 2، 1978، ص 215.

(2) للتوسع انظر الحاخام تاوفيلوس اليهودي، بذل المجهود في إفحام اليهود وإظهار سر الدم المكتوم، دار بيبليون، باريس، 2005، ص ص 131-132.

(3) ابن هشام، السيرة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 1، 1987، ج 2، ص 190، وانظر أيضاً تاريخ الطبري، ج 2، ص 551.

«الأرض[1]»، وقد ضرب لهم مثل من قتل قابيل شاهداً لتحذيرهم وترويعهم بأن جعل له علامة لكي لا يقتله كلّ مَن يعترض سبيله، وسلّط عليه الرعب والخوف كي يعيش منفياً على الأرض، وحرم على الناس قتله كي تطول لديه رحلة التيه والتشرّد[2]. وهكذا أقرت شريعة اليهود تحريم دم الجريمة ووصى الله شعبه باجتنابها وحذّرهم من عقوبتها سواء في مجال العقوبات الدنيوية «وَلي الدم يَقْتُلُ القَاتِلَ حينَ يُصَادِفُهُ يَقْتُلُهُ»[3] أو في مجال العقوبات الربانية التي تطال الشعب بأسره، كما أطنبت نصوص التوراة في التشريع لحرمة دم القتل، وحددت ضوابطه من حيث العقوبات وشهود الإثبات وطرائق استيفاء القصاص.

والناظر في القانون المدني العبري يلحظ الاستلهام الكلي لنصوص قوانين الجريمة الدموية وعقوباتها من نصوص التوراة أساساً[4]، ومقابل تحريم دم اليهودي أجازت نصوص العهد القديم بعض العادات المتعلقة باستنزاف دم غير اليهودي من خلال مزجه بالعجين الذي يصنع من فطير العيد الذي يأكله اليهود، ذلك أن لليهود عيدين مقدّسين لا تتحقق الفرحة فيهما إلا بتناول الفطير الممزوج بالدماء البشرية، العيد الأول هو عيد البوريم «Purim» في شهر آذار/ مارس من كل عام، ويرمز إلى قصة اليهودية الجميلة «أستير» المذكورة

---

(1) انظر سفر اللاويين 26: 18-20.

(2) انظر سفر اللاويين 4: 15-16.

(3) العدد 35: 20.

(4) للتوسع انظر المادة 126 من القانون العبري، المقارنات والمقابلات بين أحكام المرافعات والمعاملات والحدود في شرع اليهود، المطبعة الهندية، مصر، 1902، ص 128.

المسيحية واعتبرته مكملاً للناموس[1]، وما جريمة القتل إلا نقض للناموس المعبر عن الإيمان، «لأَنَّ الَّذِي قَالَ لاَ تَزْنِ قَالَ: لاَ تَقْتُلْ، فَإِنْ لَمْ تَزْنِ وَلَكِنْ قَتَلْتَ فَقَدْ صِرْتَ مُتَعَدِّيًا النَّامُوسَ»[2].

لقد تعاملت نصوص العهد الجديد مع جريمة القتل وسفك دماء البشر بتعميم كبير فلم تستثنِ بشاعة هذا الجرم بين من كانت ضحيته من المسيحيين أو من غيرهم على النحو الذي عمدت إليه شريعة اليهود، كما حافظت المسيحية على مبدأ القصاص من المجرم بأن استعادت صيغته من اليهودية مع تركيزها الكبير على نبذ هذا العنف بمختلف أشكاله من أجل إرساء مبدأ المحبة وتعميمه على جميع الخلق لتفادي العقوبة الإلهية التي صرحت بها نصوص العهد الجديد، وهي الحرمان من ملكوت الرب، فعدّدت أعمال الجسد الظاهرة في الزنا والقتل والنجاسة وعبادة الأوثان والسحر والسخط والشقاق والبدعة وغيرها من الفواحش الظاهرة والباطنة، وحددت عقوبة اقترافها من خلال القول «إِنَّ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ مِثْلَ هذِهِ الأُمُورِ لاَ يَرِثُونَ مَلَكُوتَ اللهِ»[3].

إننا نلاحظ أنّ عقوبة الجرم الدموي في المسيحية لم يتعرض البتة ولو بالإشارة إلى الترهيب من عذاب العالم الغيبي، واستعاضت عن ذلك بالحرمان من الملكوت، وهو ما يتناقض مع النص القرآني الذي توعد القاتل بعذاب أليم في حياة المعاد، ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ

(1) انظر رسالة بولس إلى أهل رومية 13: 18-20.
(2) رسالة يعقوب 2: 10-12.
(3) رسالة يعقوب 2: 18-20.

في الوصايا العشر لليهود على النهي عن إراقة دم الإنسان من بني إسرائيل وأجازته مع غير اليهودي، وهو يتعارض مع نصوص الإنجيل التي نهت عن قتل الإنسان وإيذائه، وقد جاء النهي عن القتل الدموي ضمن وصايا المسيح، «لا تَقْتُلْ، لا تَزْنِ، لا تَسْرِقْ، لا تَشْهَدْ الزورَ، أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ وَأَحِبَّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ»[1]، فجاء الأمر بالابتعاد عن هذه الجرائم وفي مستهلها الجريمة الدموية.

ويبلغ النهي أشدّ الدرجات حين تشير نصوص الإنجيل إلى الحكم الشرعي الذي يستحقه القاتل وهو الحكم المعهود والمستمدّ من الشريعة الموسوية السابقة التي نصت على عقاب مضاعف وجامع بين عقوبة فردية مادية وأخرى إلهية شاملة لا تشمل القاتل فقط وإنما تنسحب على أفراد الشعب عامة، «قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقُدَمَاءِ: لاَ تَقْتُلْ وَمَنْ قَتَلَ يَكُونُ مُسْتَوْجِباً لِلْحُكْمِ، وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ يَغْضَبُ عَلَى أَخِيهِ بَاطِلاً يَكُونُ مُسْتَوْجِباً لِلْحُكْمِ»[2]. وإن لم تحدّد النصوص المسيحية حكماً شرعياً يتعلق بعقوبة الجريمة الدموية واقتصرت على مجرد استعادة الحكم الشرعي السماوي السابق فإنها قد ساوت بين الحكم المستوجب للقتل وللغضب معاً، وأفاضت في الحديث عن تقبيح فعل القتل ونعته بالموبقات التي تنجس الإنسان وتكشف عن ظلمة القلب الذي منه تنبعث الأفكار الشريرة والداعية إلى ارتكاب الآثام والذنوب والمعاصي كالقتل والزنا والفسق والسرقة وشهادة الزور[3]، وهو ما يتعارض مع مبدأ المحبة الذي نادت به

(1) متى 19: 8-10.

(2) متى 5: 21-24.

(3) انظر متى 15: 18-20.

﴿فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[1]. وقد توعدت نصوص «القرآن» قاتل النفس البشرية بغير حق أن تطاله عقوبة العذاب الأليم يوم القيامة بما صنعت يداه من سفك دم المسلم أو غير المسلم، فكانت عقوبته الخلود في النار كعقوبة الشرك بالله على حدّ سواء بالإضافة إلى عقوبة قدرية نستشفها من قول «المائدة»: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[2].

وشرعت نصوص القرآن للعقوبة الدنيوية فضلاً عن العقوبة الأخروية، وحدّدتها في القصاص والدّية والكفارة والحرمان من الميراث[3]. وبذلك اتفقت النصوص المقدسة للرسالات السماوية من جهة تحريم جريمة القتل الدموية والنهي عنها وإنْ بتصريفات وأشكال متباعدة أحياناً ومتقاربة أحياناً أخرى، ذلك أن التحريم ورد شاملاً في المسيحية والإسلام، وورد معيناً في اليهودية بإباحة قتل غير اليهودي. فقد جاء في «التلمود» أن «من يقتل مسيحياً أو أجنبياً أو وثنياً يكافأ بالخلود في الفردوس والجلوس هناك في السراي الأربعة، أما من قتل يهودياً فكأنه قتل الناس أجمعين، ومن تسبب بخلاص يهودي فكأنه خلص الدنيا بأسرها»[4]. فالتلمود اليهودي بما هو نصّ مدني شمله التقديس الأيديولوجي أباح ممارسة القتل ضد الآخر واعتبرها طقساً

(1) المائدة 5: 32.

(2) المائدة 5: 30.

(3) انظر البقرة 2: 178، انظر أيضاً المائدة 5: 45.

(4) عماد عبد الغني، التلمود استكمال الأسطورة وتأصيل العنف، كتاب إلكتروني على موقع:
http://www.waaraba.net/modules.php?name=News&file=article&sid=2044

لَهُمْ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[1]. وقد حذت المرويات الإسلامية والنصوص المحافظة في التراث العربي الإسلامي حذو هذا التشريع الرباني في مقاربتها لجريمة القتل أو الإماتة وإزهاق الروح فحرمت هذا الفعل الذي تزول به الحياة[2]، تواشجاً مع القول الفصل في النص القرآني، إذ تقول «الإسراء»: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾[3].

لقد نهى النص القرآني عن القتل وأجازه في صيغة الحق كما على وجه الخطأ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا﴾[4]، ونهت الأحاديث النبوية عن اقتراف سفك دماء الآخر، وحذرت من ذلك بانحراف القاتل عن الصراط المستقيم، «لا يزال العبد في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً»[5]. وتحريم أمر قتل النفس بغير حق قاربته نصوص القرآن بصيغة المفرد الدّال على الجمع إذ اعتبرت قتل النفس الواحدة في مقام قتل الناس جميعاً، ومردّ ذلك قد يعود إلى ما يترتب على استفحال جريمة القتل وسفك الدماء من هلاك للجنس البشري الذي هو خليفة الله على الأرض، وفي هذا السياق تقول «المائدة»: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا

---

(1) النساء 4: 93.

(2) انظر: الفيروز أبادي، القاموس المحيط، دار العلم للجميع، بيروت، د. ت، ص 1352.

(3) الإسراء 17: 33.

(4) النساء 4: 92.

(5) صحيح البخاري، 12/ 194.

الزوج والمرأة الزوجة وإلى ارتباطها بالعبادات، ومنها الصلاة والصوم والحج.

وقد شكلت أنواع الدماء الخاصة بالنساء محاور مهمة في نصوص الكتب المقدسة، واحتلت حيزاً واسعاً في التشريع السماوي للديانات الكتابية التي اتفقت فيما بينها في مستوى نجاسة هذه الدماء وإن اختلفت نسبياً في مستوى تنويعات الأحكام الشرعية الواردة في شأنها، فالحيض بما هو دم يفرزه رحم المرأة بعد بلوغها في أوقات معتادة يجعل المرأة الحائض نجسة لمدة سبعة أيام، وكل ما تلمسه أو تجلس عليه يكون نجساً، وكلّ مَن لمسها أو لمس فراشها أو جامعها يكون نجساً ويجب عليه الغسل: «وَإِذَا كَانَتْ امْرَأَةٌ لَهَا سَيْلٌ وَكَانَ سَيْلُهَا دَماً فِي لَحْمِهَا فَسَبْعَةَ أَيَّامٍ تَكُونُ فِي طَمْثِهَا وَكُلُّ مَنْ مَسَّهَا يَكُونُ نَجِساً إِلَى الْمَسَاءِ [...] وَإِنِ اضْطَجَعَ مَعَهَا رَجُلٌ فَكَانَ طَمْثُهَا عَلَيْهِ يَكُونُ نَجِساً سَبْعَةَ أَيَّامٍ وَكُلُّ فِرَاشٍ يَضْطَجِعُ عَلَيْهِ يَكُونُ نَجِساً»[1].

وتشتد صفة النجاسة لدى المرأة الحائض في «سفر اللاويين» ليمتدّ المنعُ إلى حدود النهي عن الاقتراب منها لكشف عورتها. ويتفق الإسلام مع التوراة في اعتبار دم الحيض نجساً يستوجب الغُسل ويقتضي عدم مجامعة المرأة وهي حائض، وإن سقط الوجوب أصبح المجامع لها نجساً مثلها، تقول «البقرة»: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[2].

---

(1) اللاويون 15: 19-24.

(2) البقرة 2: 222.

إيمانياً يسهم في تقوية علاقة المؤمن اليهودي بالربّ. وسكتت اليهودية والمسيحية عن عذاب الآخرة في معاقبة القاتل في حين أن الشريعة الإسلامية قد أفاضت في الترهيب بتصوير أهوال العذاب العظيم الذي توعّدت به قاتل النفس بغير حق، فاستحال الاختلاف جلياً في الربط بين العقوبة الدنيوية والعقوبة الأخروية رغم التناغم الحاصل بين هذه النصوص الدينية وخاصة بين التوراة والقرآن[1].

ب- دم الحيض والاستحاضة والنفاس

تنزلت حواء في النصوص المقدّسة منزلة بارزة سواء من جهة الخصائص التي تحملها في أصل خلقها أو من جهة حضورها اللافت في الخطيئة الكبرى التي أصابت آدم ولحقت بالبشرية عامة، ولعل اقترانها الدائم بالخطيئة الأولى كان سبباً رئيساً في العقاب الذي ألحقه الله بها بعد خطيئتها، «ما أنت يا حواء فكما أدميت الشجرة تدمين في كل هلال»[2]، فغوايتها لآدم ودفعها له إلى أن يأكل من الشجرة «يا حواء أنت التي غرّرت عبدي فإنك لا تحملين حملاً إلا حملته كرهاً»[3]، قد قابلهما عقاب دائم ظلّ مقترناً بها من خلال الدماء التي تختص بالنساء وأقسامها الثلاثة، وهي دم الحيض ودم النفاس ودم الاستحاضة، ولكلّ قسم أحكامه مفصّلة في موسوعات الفقه عند الفقهاء نظراً إلى ارتباط هذه الدماء بالمعاملات وخاصة بين الرجل

---

(1) للتوسع انظر جلال الدين عبد الرحمان السيوطي، الدر المنثور في التفسير المأثور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1990، ج 2، ص 103.

(2) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج 1، ص 169.

(3) نفسه، ج 1، ص 108.

في غير وقت الحيض المعتاد، وفي ذلك تقول التوراة: «وإذا كانت امرأة بسيل سيل دمها أياماً كثيرة في غير وقت ضمثها أو إذا سال بعد ضمثها فتكون كل أيام سيلان نجاستها كما في أيام طمثها [...] وإذا طهرت من سيلها تحسب لنفسها سبعة أيام ثم تطهر»[1]. هكذا حددت نصوص التوراة مدة الاستحاضة والموانع المفروضة على المرأة أثناء الاستحاضة وأسهبت في ذكر أثر نجاستها في حياتها اليومية الخاصة والعامة.

وإذا نظرنا في الفقه الإسلامي نجد أنه يستند إلى آيات النص القرآني في التعريف بمعنى الطهرة لدى المرأة، ولا نجد اتفاقاً كالعادة بين فقهاء المسلمين حول المدة التي يستغرقها دم الاستحاضة أو ما يباح للمرأة عمله خلال هذه الفترة، وإنما استدلوا على نجاسة دم الاستحاضة وما يقتضيه من منع وضوء المستحاضة بما توفر لديهم من تعريفات متعلقة بكل دم يسيل من رحم المرأة فهو «أذى» في قول «البقرة»: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾[2] يوجب الغسل للبدن والثوب، ولا فرق في النهي عن مباشرة المرأة أثناء ظهور دم الحيض أو الاستحاضة لأنه رجس كشأن دم النفاس بما هو الدم الذي سببه الولادة، ويستمر بعد خروج المولود مدداً متفاوتة بتفاوت حالات النساء.

وقد استعصت مسألة النفاس في الفقه الإسلامي فاختلفت فيها الآراء والأحكام بين المذاهب الفقهية الأربعة[3] لوجود التباس كبير في

---

(1) اللاويون 15: 25-28.

(2) البقرة 2: 222.

(3) للتوسع انظر عطية محمد سالم، موسوعة الدم في الإسلام، ص ص 210-211.

فالقرآن شأنه شأن التوراة أدرج الحديث في موضوع دماء الحيض لدى المرأة ضمن جدلية الطهارة والنجاسة، غير أن كتاب «التوراة» لئن فصّل الحديث عن النجاسة وحدّد المدة الزمنية التي تكون عليها المرأة حائضاً وضبطها في سبعة أيام ورصد التشريعات التي تلحق بجسدها وثيابها وفراشها ويشؤون عملها وبعلاقة الأشياء بطهارتها ونجاستها وعلاقة الرجل بها في حال نجاستها وطهارتها فإن القول القرآني اكتفى بمجرد الإشارة إلى نجاسة المرأة أثناء الحيض، ونهى الرجل عن الاقتراب منها إلى أن تتطهر، وسكت عن تحديد المدة الزمنية للحيض كما سكت عن طبيعة علاقتها بالأشياء المحيطة بها أثناء فترة الحيض، ولعلّ هذا الإجمال دفع عديد فقهاء الإسلام إلى التوسع في هذه المسألة وتفصيل القول فيها، كأن ليس هناك ما شغل الفقهاء المسلمين مثل ما شغلهم دم الحيض الذي تأصل ثابتاً في المرأة باعتباره شاهداً على الوقوع في الخطيئة ومحققاً لمقولة العقاب الذي لا يمكن تجاوزه إلا بالطهارة التي تمنح المرأة القدرة على الرجوع إلى طبيعتها الأصلية فتتمكن من ملامسة المقدس والمصالحة معه من خلال السماح لها بأداء الفرائض الدينية وإتمام العبادات كالصلاة والحج[1]، حتى لكأنّ «الطهارة عودة إلى التسامي والقدسية ومصالحة الإنسان مع ذاته»[2].

أما النوع الثاني من الدماء التي تصيب المرأة وتعدّ مصدر نجاسة في النصوص الدينية فهو دماء الاستحاضة بما هو نزول الدم من المرأة

---

(1) للتوسع انظر عطية محمد سالم، **موسوعة الدماء في الإسلام**، دار الجوهرة، 1426هـ، ط 1، المجلد 1، ص ص 208-211.

(2) A. Bouhdiba, *La sexualité en Islam*, PUF, 1975, p. 74.

المتعلقة بنجاسة الدماء الخاصة بالنساء فإن ذلك لا ينفي البتة نسبة التشابه الكبير بين الشريعتين من جهة الأصول وتحديد المحرمات التي تلحق نجاسة هذه الدماء، وإنّ كل الاختلافات الموجودة بين اليهودية والإسلام هي عبارة عن اجتهادات الفقهاء وكيفيات مقاربتهم لهذه المسألة من زاوية نظر فقهية بالاعتماد على مقتضى النصوص المقدسة التي اتفقت في مستوى ردّ نجاسة هذه الدماء إلى عقوبة إلهية سلطت على حواء جزاء ما اقترفته من خطيئة، فآلام الحمل والولادة هي من صميم العقوبات الأبدية بموجب النص التوراتي، إلا أنّ الإنجيل قد قرن ذلك بما يمكن أن يخفف عن المرأة آلام هذه العقوبة «المَرْأَةُ وَهِيَ تَلِدُ تَحْزَنُ لأَنَّ سَاعَتَهَا قَدْ جَاءَتْ وَلَكِنْ مَتَى وَلَدَتِ الطِّفْلَ لاَ تَعُودُ تَذْكُرُ الشِّدَّةَ لِسَبَبِ الفَرَحِ لأَنَّهُ قَدْ وُلِدَ إِنْسَانٌ فِي العَالَمِ»[1].

ويتحدث بولس عن آلام الولادة بما هي عقوبة على الخطيئة الأولى وسبيل إلى الخلاص من آثامها إذا اقترنت بالإيمان والتقوى بقوله: «وَلَكِنَّهَا سَتَخْلُصُ بِوِلاَدَةِ الأَوْلاَدِ إِنْ ثَبَتْنَ بِالإِيمَانِ وَالمَحَبَّةِ وَالقَدَاسَةِ مَعَ التَّعَقُّلِ»[2]. وتعمد المسيحية إلى التركيز على أن خطيئة آدم وحواء التي ورثتها البشرية جيلاً بعد جيل إنما تحمَّلها المسيح وحده، وبمفرده كان كفارة عن هذه الخطية، وما آلام المرأة أثناء الحيض أو الاستحاضة أو النفاس إلا مشتركة للرب في عملية امتداد الحياة والمحافظة عليها بما يتعارض مع نصوص العهد القديم التي ضبطت مدة طهر النفاس بنوعية المولود ذكراً أم أنثى[3]، ذلك أن مدة

---

(1) يوحنا 16: 21.

(2) رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس 2: 15.

(3) انظر سفر اللاويين 12: 1-2.

تحديد نوعية هذا الدم وخاصة ما تلتبس فيه الحيضة بالاستحاضة، أما في التشريع اليهودي فقد جاءت التوراة كعادتها في مجال الحديث عن نجاسة الدماء الخاصة بالمرأة مفصّلة القول وشاملة الإحاطة بتفاصيل المسألة، إذ في معرض حديث النص التوراتي نقف على تحديدات واضحة لهذه الحالة التي يقول فيها «سفر اللاويين»: «قُلْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: إِذَا حَبِلَتِ امْرَأَةٌ وَوَلَدَتْ ذَكَراً تَكُونُ نَجِسَةً سَبْعَةَ أَيَّامٍ، كَمَا فِي أَيَّامِ طَمْثِ عِلَّتِهَا تَكُونُ نَجِسَةً، وَفِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ يُخْتَنُ لَحْمُ غُرْلَتِهِ، ثُمَّ تُقِيمُ ثَلاَثَةً وَثَلاَثِينَ يَوْماً فِي دَمِ تَطْهِيرِهَا، كُلَّ شَيْءٍ مُقَدَّسٍ لاَ تَمَسَّ وَإِلَى الْمَقْدِسِ لاَ تَجِيءُ حَتَّى تَكْمُلَ أَيَّامُ تَطْهِيرِهَا»[1].

إننا نتبين من خلال الشواهد الواردة في التوراة وفي القرآن في موضوع نجاسة الدماء الخاصة بالنساء أنها أحوال ناجمة عن العلة الأبدية التي لحقت بحواء جراء ما اقترفته من غواية لآدم حتى يأكل من الشجرة، وكأن هذه النجاسة إنما هي عقوبة صاغتها الشرائع السماوية ونادت بها في نصوصها المقدسة.

وتبلغ نجاسة هذه الدماء إلى حدود تحريم مباشرة المرأة للأعمال الدينية كالصلاة والحج، وتزيد الحائض والنفساء عن المستحاضة أموراً أخرى تتعلق بالصيام الذي يحرم على الحائض والنفساء، وتكون مطالبة في الفقه الإسلامي أن تقضي ما فاتها في أيام الحيض والنفاس من صوم رمضان وما فاتها من صلاة[2]. ورغم بعض الاختلافات الحاصلة بين اليهودية والإسلام في مسألة التشريعات والمحددات

(1) اللاويون 12: 2-5.

(2) انظر عطية محمد سالم، الدم في الإسلام، ص ص 220-221، وانظر مالك في الموطأ، كتاب الطهارة، ص 134.

لقد احتل الدم النجس المقترن بحواء حيزاً بارزاً مهماً في نصوص الكتب المقدسة تجلى بأشكال متفاوتة وبصيغ متقاربة أحياناً ومتباعدة أحياناً أخرى، ولعلّ اهتمام المقدّس بنجاسة الدماء الخاصة بالنساء أكبر الشواهد دلالة على هوس النصوص الدينية بالجسد، إذ هي نصوص لا تخشى من إفرازات الجسد، بل تخشى من إفرازات النصف الأسفل من الجسد.

خاتمة الفصل

مثلت ثنائية الطهارة والنجاسة فاصلاً مادياً شكلياً في علاقة المؤمن بالمقدّس بمختلف تنويعاته وتجسيداته الحسية والمجردة. فبعدما كانت حالات القداسة والنجاسة لدى الإنسان البدائي متداخلة لديه وملتبسة إذ لا خيط رفيع فاصل بينهما إبان ممارسة العادات التي ترسمها المعتقدات، جاءت النصوص المقدسة وجلبت معها ضوابط وسياقات استعمال محكومة بمجموعة من العناصر المادية المؤثرة في الواقع المعيش والماثلة في طقوس وشعائر دينية، فاستحال نظام القيم حداً فاصلاً شاسعاً بين المقدّس والنجس وتبيُّن الطاهر من الدنس في المعاملات وفي العبادات، وقد توصلنا في دراسة ميثولوجيا الدم من خلال البحث في ثنائية القداسة والنجاسة إلى مجموعة من النتائج لعل أهمها:

أولاً

تبدو قضية الخلاص في النصوص المقدسة في قمة التعقيد والتشابك وخاصة مع المسيحية التي تختص بتصور مخصوص لمقولة

النجاسة تتضاعف كلما كان المولود أنثى، حتى لكأنّ الدم صار عنصراً مهماً في تحديد مدة هذه العقوبة المسلطة على المرأة، فتكون نوعية المولود هي المقياس الذي به تحدد مدة العقوبة، ومدة الوقوع في النجاسة والحرمان من أشكال المقدس وممارسة العقيدة. فهي إن ولدت ذكراً تكون مدة النجاسة أربعين يوماً وضعفها إذا ما كان المولود أنثى، وشريعة التطهر من الدماء المتعلقة بالمرأة ترتبط جوهرياً بالخطيئة الأصلية التي تنتقل إلى كلّ الجنس البشري بالتوالد «هَا أَنَا ذَا بِالإِثْمِ صُوِّرْتُ وَبِالْخَطِيئَةِ حَبِلَتْ بِي أُمِّي»[1]، فكانت المعمودية ضرورية لكل مولود جديد في المسيحية بالرغم من أنه لم يخطئ خطيئةً فعلية. ولعل المقصد من مضاعفة مدة النجاسة للمرأة التي أنجبت المولود أنثى يعود إلى تكثيف النص التوراتي والنص الإنجيلي لمدة العقوبة المفروضة على حواء وأيضاً للتذكير بالخطيئة، وبسبب ذلك أمرت الشريعة في العهدين القديم والجديد المرأة النفساء والحائض والمستحاضة أن تكون بعيدة عن المقدّس لفترات زمنية تختلف باختلاف نوعية الدم، وهو المقياس الذي نصّت عليه شريعة الإسلام بأسلوب مباشر يغلب عليه التعميم. ففي حين أقرّت شريعة الكتاب المقدس للعهدين القديم والجديد نوعية المولود ذكراً كان أم أنثى لضبط مدة نجاسة المرأة النفساء فإن شريعة الإسلام سكتت عن هذه الآلية في التشريع، ولعله الصمت الذي أسهم في تعدُّد الأصوات المنادية بمساواة الرجل بالمرأة في بعض الدراسات العربية التي استغنت المجمل لتفصيله، وعمدت إلى الفراغ لتسده، وهل الذكر كالأنثى؟

---

(1) المزامير 51: 5.

والمجرد غير المحسوس، وقد عُدَّ دم الجريمة في الأديان من الآثام الكبرى التي يقترفها الإنسان قد توازي إثم الشرك بوحدانية المعبود، وتنوعت التشريعات المتعلقة بقاتل النفس البشرية بين الخروج عن الشريعة وعن ملكوت الرب، وما قصة الجريمة الأولى لقابيل وهابيل إلا شاهد شكلي على حرمة دم الإنسان وعلى استهلال الوجود بجرم تاريخي استدعى وجوباً مضامين دينية نادت بحرمة هذا الدم المسفوك ونجاسة الفعل أخلاقياً ودينياً.

رابعاً

ألحّت نصوص الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد كما القرآن على نجاسة الدماء الخاصة بالمرأة أثناء الحيض أو الاستحاضة أو الولادة، وحددت الفترة الزمنية التي تكون فيها المرأة محمولة على النجاسة بحسب نوعية الدم، وتفردت شريعتا التوراة والإنجيل بمقياس نوعية المولود ذكراً أم أنثى في حالة النفاس، كما أن نجاسة دم المرأة في هذه الحالات قد فسرته نصوص الكتاب المقدس بالعقوبة الإلهية التي أنحقت بحواء بسبب ارتكابها للخطيئة الأبدية. غير أن ثنائية القداسة والنجاسة لم تتخذ بُعداً حسياً شاسعاً في المسيحية وإنما طرحتها نصوص الإنجيل في سياقات باطنية مجردة غلبت فيها طهارة النفس على طهارة الجسد ونظافته، في حين تبنّت نصوص التوراة ونصوص القرآن متلبسة بهوس كبير بالجسد بلغ أقصاه مع الفقه الإسلامي.

الخلاص تختلف في شأنها عن اليهودية والإسلام، ذلك أن الخطيئة من منظور النصوص الإنجيلية لا يمكن التخلص منها إلا بفكرة الفداء التي جسّدها المسيح، كما لا يمكن التكفير عنه إلا بدم إلهي تتطهر البشرية من خلاله وتنجو من آثامها، فاستحال دم المسيح رمزاً للخلاص واستقام «العشاء الرباني» طقساً دينياً يختزل التفكُّر المستمر في خروج الخطيئة من جسد الإنسان عامة والرغبة في دخول ملكوت الرب بسريرة نقية، في حين ظلّ الخلاص في اليهودية رهين الالتزام بشريعة موسى مثلما ظلّ في الإسلام نجاة محكوماً بالتقوى والعمل الصالح وأداء فرائض الطقوس الدينية.

ثانياً

إن فكرة الشهادة أو الموت في سبيل ما به يؤمن الإنسان ليست ذات مرجعية إسلامية وإنما ترتد من حيث أصل ظهورها إلى الأديان السابقة للإسلام، ولها أيضاً جذور جاهلية أيام كان الجاهلي يقدم على الموت في سبيل القبيلة. ولقد اتخذت فكرة الشهادة بما هي تضحية الإنسان بدمه من أجل إعلاء دينه وفي سبيل الله شكلاً تعبُّدياً في النصوص الدينية التي جعلت من دم الشهيد رمزاً مقدّساً موعوداً بالخيرات وحسن الجزاء قد يصل فيه الوعد إلى مصاف المتخيل وخاصة في نصوص «القرآن» حيث النعيم المرصود في عالم الغيب.

ثالثاً

حرصت النصوص الدينية على تحريم سفك الدماء وإراقتها قتلاً وجريمة، وشرّعت لفعل القتل عقوبات تراوحت بين المادي المرئي

الفصل الثالث

المحمولات الرمزية للدم في الديانات السماوية

تصدير

«اخلع نعليك [illegible] لأن الموضع الذي أَنْتَ وَاقِفٌ عَلَيْهِ مُقَدَّسٌ، [illegible] يَشُوعُ الأَمْرَ»

يشوع 5: 15.

مقدمة الفصل

جاءت النصوص المقدّسة، وجلبت معها النصف الآخر من قاموس اللغة وبعضاً من أساطير الماضي بما تحتويه من عجائب وغرائب، فتحمّلت الذات الإلهية مسؤولية تنظيم العلاقة بينه وبين شعبه من جهة أولى، وبين شعبه وبين شعوب الأمم الأخرى من جهة ثانية. وبرز مفهوم الدم هو المحرّك الحيوي والأساسي لطبيعة هذه العلاقة في بعض أسفار الكتاب المقدس وبعض آيات القرآن. وقد عزمنا في هذا الفصل من البحث على أن نتناول بالدراسة جملة المحمولات الرمزية التي أفرزها الدم في نصوص المدونة المعتمدة من خلال قسم أول خصصناه للنظر في رمزية الصورة الدموية وما أنشأته من صور فرعية تعلّقت إما بالذات الإلهية المتحكّمة في العالم المطلق والمحتكرة للقداسة تؤتيها لمن تشاء وتنزعها عمّن تشاء، وإما بالذات الإنسانية التي ظلّت متلبسة بمضامين النص محافظة على قدسيته والتعامل بطقوس الخشوع والالتزام التام بوصاياه والانضباط بتعاليم شرائعه دون أن تدري أنها بذلك تُسهم في تشكيل صورة دموية لا للإنسان فقط وإنما للألوهية أيضاً.

أما القسم الثاني فنتعرض فيه إلى دلالات التاريخ المتقادم للدم

سواء في الأساطير القديمة أو في الأديان، بما أكسب النصوص المقدسة مرجعيات أسطورية عجائبية أغنت هذه النصوص، وأثّرت مجالات المتخيّل فيها بما استعارته من صورٍ للدم في نسق جريانه الأسطوري، فهل كانت نصوص الديانات الثلاث تعي جيداً أن استلهامها لهذا الجزء من التراث الخرافي العجيب والغريب يؤسّس لحضارة الدم لحظة إنشائها لمضامينها النصية الدينية؟ وهل استثمرت النصوص المقدسة البناء الأسطوري للصراع لإضفاء مشروعية سماوية للعنف والحرب فوق الأرض؟ وهل كان الدين في حاجة للأسطورة لتحديد رهاناته النصية أم أن الدين لا يعدو كونه ضرباً من الأسطوري أو هو الأسطورة ذاتها؟

لقد عزمنا على طرح هذه الأسئلة حول منطلقات النصوص المقدسة ومرجعياتها التاريخية للوقوف عند مقاصدها الدينية والحضارية وبيان الخلفيات الإبستيمولوجية والأنطولوجية للعنف الكامن في ثنايا النصوص المقدّسة من خلال تتبّع سياقات حضور آيات الدم في هذه النصوص وتصريفاتها على وجه الحقيقة وعلى وجه المجاز.

1- رمزية الصورة الدموية

إنّ دراسة مفهوم الصورة وكيفيات اشتغالها في النصوص المقدسة يفترض بداهة النظر في تجليات تجسّد هذه الصورة وطرائق التعبير عنها بواسطة الرمز بما أن الصورة في الدراسات النقدية الحديثة تمثّل ضرباً من التعتيم المتسبّب في تعطيل اللغة والانحراف بها عن كونها مجالاً للتواصل والتبليغ، ولكنها ظلت عاملاً من عوامل تواصلها

وتجدّدها، ولما كانت اللغة تنبني على الصورة فليس بوسعنا الحديث عن الصورة إلا بطريقة استعارية[1]. فالنظر في رمزية الصورة الدموية المتفرعة عن طرفي مدار الظاهرة الدينية وهما الإنسان والإله يتحيّز الرابط بينهما «هبة تنطوي في ثوانيها كل الأشكال الدينية»[2]، إذ لا يتسنّى للبحث التأويل الرمزي للصورة الذي يبقى دائماً غير محكوم بحدٍّ إلا من خلال تتبع علاقته بالسياق.

وتزخر النصوص المقدّسة بعديد الصور لعلّ أهمها ما اتّصل برسم ملامح صورة الذات الإلـهية التي أدّى فيها الرمز دوراً كبيراً في تحديد هوية الإلـه المعبود وفضاء وجوده وحدود قوته المفارقة حتى أصبح ركناً أساسياً من أركان كل ديانة، فالأفكار الدينية عند السومريين قديماً كانت ترتكز على تصوُّر متعدّد الجوانب للآلـهة، فهم يعتقدون أن الإلـه (آن) هو إله السماء، وهو الحاكم الأسمى والإلـه الأعظم، ولكنه في نظرهم يتصرّف كما البشر في ممارسة الحياة اليومية والمطالب البيولوجية[3]. وهذه النزعة التجسيمية للآلـهة أو المزج بين الصفات الإلـهية والبشرية سيطرت بشكلٍ ملحوظ في التفكير العقدي لدى السومريين، وقد توارث البابليون هذه المعتقدات والعقائد السومرية بعد أن سقطت الحضارة السومرية وانهارت في ظلّ بروز

---

(1) للتوسع انظر: Paul Ricoeur, «Le conflit des herméneutiques: épistémologie des interprétations», article in *Cahiers internationaux de symbolisme*, Paris, 1963, p. 184.

(2) Mircea Eliade, *Images et symboles. Essais sur le symbolisme magico-religieux*, Gallimard, 1952, p. 44.

(3) انظر جفري بارندي: «المعتقدات الدينية لدى الشعوب»، ترجمة عبد الفتاح إمام، سلسلة عالم المعرفة، عدد 173، 1993، ص 12.

واحد هو رب الجنود والناصر لهم، وهو رب شخصي لليهود، «فَأَكُونُ إِلَـهاً لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ»[1]. أما المسيحية فالإله ليس حكراً لفئة المسيحيين فحسب، فهو رب العالمين، ولكن وحدانية الإله ليست مطلقة وإنما تتكون من ثلاثة أقانيم (الأب والابن والروح القدس) والثلاثة هم إله واحد، فالتثليث في وحدة والوحدة في التثليث، «فَاذْهَبُوا الآنَ وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الأُمَمِ وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الأَبِ وَالابْنِ وَالروح الْقُدُسِ»[2].

أما الإسلام فأقر بوحدانية الله المتفرد بالقوة والعظمة، تقول «القصص»: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[3]، ومن ثم فالله في الديانات السماوية واحد وما على الإنسان إلا أن يمجده ويتضاع لأوامره ونواهيه بكامل الالتزام والطاعة، «ومَا دام الوعي الإنساني لا يستطيع الصمود أمام الله فليس له الحق في الوجود وإنما وجوده بفضل من الذات المتعالية ومنها، ولهذه الأسباب كلها تبدى موقف الإنسان تجاه الله بالصورة موقف الخوف والخشية»[4]. فهل أسهمت فكرة وحدانية الله في صياغة النصوص المقدسة لصورة دموية للإله بما أن الصورة تقوم على نوع من الانزياح وارتكاب خطأ مقصود بهدف إلى إعادة تشكيل الأشياء تشكيلاً مجازياً ورمزياً؟ وإلى أي مدى كانت صورة الإله في النصوص

---

(1) التكوين 17: 7.

(2) متى 28: 19.

(3) القصص 28: 70.

(4) ستيس ولتر، فلسفة هيغل فلسفة الروح، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير، بيروت، ط 3، 1983، ص ص 192-193

اليابنيين، وقد تعاظمت صورة الآلهة تدريجياً وعلى مرّ العصور لتصل مع الكنعانيين إلى حدود المبالغة في التعظيم والتفوق على جميع الآلهة، وقد يدلّ ذلك بوضوح على نزوع الكنعانيين إلى تدبُّر عقيدة التوحيد والقبول بها[1]، ومثّلت تلك الصورة مرحلة من مراحل القطع مع ظاهرة توزع الآلهة حسب المنطق وحسب الأعمال التي تُناط بهذه الآلهة، فلكلّ منطقة إله، ولكل عمل أو ظاهرة إله[2]. فسقط هذا التعدُّد ليترك المجال لمرحلة توحّدت فيها الآلهة مفرداً بصيغة الكلّ، فالتوحيد «مرحلة من تاريخ المنطقة القديم سمة مميزة للعبادة في إطار تعدُّد طقسي ربوبي، وقد استمرت هذه الصبغة فترة طويلة من الزمن مشكّلة مرحلة مهمة في سياق تطور الفكر الديني في المنطقة»[3].

ويرى كارل بروكلمان (K. Brockelmann) أنّ مفهوم التوحيد عند العرب القدماء قد تطور عبر العصور ونجم عن التطور التاريخي للفكر البشري الذي اقتصرت عبادته للأصنام على مجرد الارتواء الروحي[4]. ومع العقائد السماوية نجحت فكرة التوحيد وعدم الإشراك بالله جوهر الإيمان في الديانات الكتابية الثلاث، فاليهودية تؤمن بأنه

---

(1) انظر دبل ميديكو، اللآلئ من النصوص الكنعانية، ترجمة مفيد عرنوق، بيروت، 1980، ص 35.

(2) انظر أحمد شلبي، مقارنة الأديان، أديان الهند الكبرى، دار النهضة، القاهرة، ط 8، 1989، ص 38.

(3) عماد الصباغ، الأحناف، دراسة في الفكر الديني التوحيدي في المنطقة العربية قبل الإسلام، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق، ط 1، 1998، ص 18.

(4) انظر كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1984، ص ص 26-34.

إن هذا الطقس العقدي اليهودي يتواشج مع بعض العادات الأسطورية التي تَنشّت في عرب الجاهلية وقبل بعثة النبي محمد، فقد سادت معتقدات تقديم البدن بما هي الإبل والأبقار السمينة تُهدى إلى مكة[1] قرابين للآلهة، وتُرَش الأصنام بدماء الذبائح، ووجه الشبه بين الفكر اليهودي والفكر الميثولوجي لعرب الجاهلية يتجلى في أنّ اليهود يرشون الدم على المذبح في حين كان العرب يرشّون الدم على الكعبة وعلى أصنامهم[2]. ولمّا كان اليهود يوقدون النار لشواء الشحم واللحم تحقيقاً لسعادة الإله بشمّ رائحة الشواء كان العرب زمن الجاهلية يقدّمون لحم الذبائح للآلهة في شكل هدايا عسى تقرّبهم منها زلفى، ففكرة رشّ الدم على المذبح للرب أو للآلهة تبدو متقادمة في التاريخ وموغلة في الطقس الأسطوري الذي كان يحكم علاقة الإنسان بآلهته، ويصور هذا المشهد عشق اليهودي للدماء وشغفه الكبير بالدم والشحم دون سواهما من الأضحية رغم أنهما القسم الأرذل منها، وكانا سبباً رئيسا في غضب «زوس» (Zeus) ونقمته على «بروميثيوس» (Prométhée) في الأساطير الإغريقية القديمة[3]، فقد خصّ «بروميثيوس» إلهه بالشحم نصيباً له من الأضحية واحتفظ باللحم للأفراد[4].

إلا أن الديانة اليهودية رصدت الدم والشحم القسم الأمثل من

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، مادة : (ب. د. ن).

(2) انظر، جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 6، ص 202.

(3) M. Eliade, *Histoire des croyances et des idées religieuses*, p. 260.

(4) Abeth de Beugheim, *La Mythologie*, Marabout, Paris, 1978, pp. 268-291.

الدينية النموذج والمثال الخاص باستنباط صورة للإنسان وفهم للوجود والموجود؟

إن تشكيل الصورة يخضع إلى مقاييس محددة تكون غالباً نتاج استجابات الفرد أو المجموعة لنظام بيئته الدينية ومحيطه الفكري والحضاري الذي فيه تخلّقت الصورة ونشأت للتعبير عن «الهيئة التي تتمثل بها الأشياء والأجسام»[1]. والصورة في النصوص المقدسة لا تقدم تعريفاً محدّداً للمضامين المحمولة على أنظمتها وبناها الشكلية وإنما تبقى محكومة بانفتاحها على إحالات لا متناهية[2] تمنح هذه الصورة قدرة على استيعاب طاقات من التجليات الأسطورية والخرافية.

أ- صورة الإله الدموي

لقد اتخذت صورة الإله خصائص متعددة ومميزات متنوعة في سياق علاقته بمفهوم الدم الوارد في النصوص المقدسة، وقد أخبرتنا نصوص العهد القديم أن الدماء هي نصيب الرب من الذبيحة المنقسمة إلى قسمين هما قسم اللحوم التي هي للإنسان يستفيد منها والقسم الثاني هو الدم نصيب الرب اليهودي الذي لا يكتفي بالدم وإنما يشترط إشعال النار على موائد شواء شحم الذبيحة كي تنبعث منها رائحة الشواء مصدر سرور الإله النوراتي ومبعث سعادته: «لِيُقَرِّبُوا لِي الشَّحْمَ وَالدَّمَ»[3].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، مادة: (هـ. ي. ء).

(2) Michel Foucault, *Les mots et les choses*, Gallimard, Paris, 1966, p. 25.

(3) حزقيال 44: 15.

نحو الإقرار بأن الدم هو مصدر الحياة يقف مع النص القرآني موقف اختلاف وتناقض لأن آيات القرآن ترى في الماء مصدر الحياة، ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾[1]، وهذا التعارض بين الكتب السماوية اليهودية والإسلام يمتد في هذا السياق إلى حدود الإشارة إلى طبيعة العلاقة الجامعة بين الله في الإسلام والدم، هل هي علاقة مجازية يحتكر فيها رب المسلمين الدم له كما الحال في اليهودية أو هي علاقة تنافر فيها يتم استبعاد الدم نصياً مخصّصاً له؟

إن صورة الإله القرآني تبدت من خلال النص المقدّس محمّلة بهواجس الشغف بالدماء ومحكومة بالإشارات الدموية، فالإسلام لم يحرم الدماء المسكوبة على عتبات المقدّس بما هي أضاحٍ سادت عند العرب زمن الجاهلية تحريماً قطعياً وإنما استعادها بشكلٍ مقنّن ومشروط بضوابط إذ حرم دماء الذبائح التي هي بما ما أُهل لغير الله بها وإما ما ذبح على النصب، فشمل التحريم ذبائح الأصنام وذبائح الأنصاب، تقول «المائدة»: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾[2]، فالآي القرآني تعامل تنظيمياً مع ظاهرة الذبائح الدموية المألوفة في الوسط الجاهلي، فكان لزاماً على هذا النصّ المقدّس الإسلامي الذي نزل في مكة حيث كان الجاهلي مؤمناً بسلطة الدم القادرة على تقريبه من الآلهة والفاعل فعل السحر في علاقته بالأصنام وبالقوى الغيبية أن لا يقطع نهائياً وجذرياً مع هذه

(1) الأنبياء 21: 30.

(2) المائدة 5: 3.

القربان «ليهوه» الذي توعّد كل من يتطاول على نصيبه من الذبائح بالعقاب[1]. فما مردّ شغف الإله اليهودي بالدم؟ وهل يحمل الدم رمزية في العقلية اليهودية تختلف عمّا استقر في بقية الأديان الأخرى؟

إن الإجابة عن مبررات الشغف الذي يحكم «يهوه» بالدم تقتضي العودة إلى بعض نصوص العهد القديم وتحديداً آيات الأسفار التوراتية حيث يقول «اللاويون»: «لأَنَّ نَفْسَ الجَسَدِ فِي الدمِ، فَأَنَا أَعْطَيْتُكُمْ إِيَّاهُ عَلَى المَذْبَحِ لِلتَّكْفِيرِ عَنْ نُفُوسِكُمْ لأَن الدمَ يُكَفِّرُ عَنِ النَّفْسِ»[2]، فالدم في علاقة وثيقة بالنفس[3]، بل هو النفس، «لأَنَّ نَفْسَ كُل جَسَدٍ دَمُهُ»[4] لذلك احتكر الرب العبراني الدم له بمفرده لأنّ «كل ما له علاقة بالحياة له علاقة وثيقة بالله سيد الحياة»[5]، بل حذّر كل من يعتدي على نصيبه بأن له العقاب، «فَقُلْتُ لِبَنِي إسرائيل لاَ تَأْكُلُوا دَمَ جَسَدٍ مَا لأَنَّ نَفْسَ كُل جَسَدٍ دَمُهُ مَنْ أَكَلَهُ يُقْطَعُ»[6].

ويتشدّد إله اليهود في ترهيب شعبه من هول التطاول على نصيبه من دمِ الأضحية، ويقدم تفسيراً لذلك بعدم الجمع بين الدم النفس واللحم في الأكل، يقول «سفر التثنية»: «لكِنِ احْتَرِزْ أَلاَّ تَأْكُلَ الدمَ لأَنَّ الدمَ هُوَ النَّفْسُ فَلاَ تَأْكُلِ النفْسَ مَعَ اللحْمِ»[7]، وفي توجه اليهودية

---

(1) انظر سفر اللاويين 3: 3-4.

(2) اللاويون 17: 11.

(3) النفس بالعبرية تسمى نفش، والنفس هي حياة الجسد، «كُلِّ دَابَّةٍ عَلَى الأَرْضِ فِيهَا نَفْسٌ حيةٌ»، التكوين 1: 30.

(4) اللاويون 17: 14.

(5) معجم اللاهوت الكتابي، مادة: (دم).

(6) اللاويون 17: 14.

(7) التثنية 12: 23.

وسفك دماء الحيوانات، فالكنعانيون تقربوا أيضاً لإلههم «بعل»[1] بالشحم المحروق وسفك دماء الحيوانات على المذبح من قبلهم، لذلك حرص الشعب الإسرائيلي على تأسيس نظام قرباني دموي بدأ أول الأمر مقتصراً على ذبيحة السلامة إذ لا خطايا ولا آثام آنذاك، ثم ابتدعوا المحرقات ثم ذبائح الإثم وذبائح الخطية، لذلك «لم يعرف الإسرائيليون في البداية إلا ذبيحة السلامة، أمّا المحرقة فقد عرفوها في أرض كنعان»[2]. وقد عمدت نصوص العهد القديم إلى تصوير مدى حضور الدم في علاقة «يهوه» بعابديه، وتوسعت دائرة الحضور إلى إضافة أشكال أخرى من الذبائح الدموية تنضاف إلى ما استقر لدى العبرانيين من طقوس وعادات في التقرب من الإله بالدم، فجاءت صورة إله بني إسرائيل حريصة على تعميق قوة الدم في تقوية علاقته بشعبه.

ولا يختلف النص القرآني في هذا السياق عن نصوص «العهد القديم» من جهة استحضاره لأشكال الذبائح الدموية والتشريع لها في العقيدة الإسلامية وإنْ بأسلوب تنظيمي قام على الاصطفاء، إذ تخبر من الذبائح التي سادت لدى عرب الجاهلية أربعة أنواع هي البدن والشعائر والهدي والقلائد، وألغى بقية الأشكال والأنواع الأخرى، حتى تبدى إله القرآن مستحضراً لتاريخه الديني السابق بطريقة الانتقاء والتخير القائم على النقصان عكس إله اليهود الذي استعاد حقه من

(1) يعني: أعظم الآلهة عند الكنعانيين بعد الإله «إيل» على الإطلاق، وهو إله زراعي يسوق الغيوم والأمطار وكرسيه فوق الغيوم.

(2) René Dussaud, *Les origines cananéennes du sacrifice israélite*, Éditions Ernest Leroux, Paris, 1921, p. 89.

المعتقدات والطقوس وإنما كان الآي القرآني مجبراً على مجاراة حياة الجاهلي، فأقرّ بتعديل نوعية الذبائح الدموية وتطويعها لخصوصية الدين الإسلامي بأن ألغى دماء الأضاحي التي لا يذكر عليها اسم إله القرآن مثلما ألغى الأضاحي التي كانت تسفك دماؤها على أصنام الجاهلية، فحرم الدماء التي تذبح أضاحيها «على غير اسم الله للآلهة والأنصاب والأصنام»[1]، ومقابل ذلك شرع للمحافظة على طقس سفك دماء الأضاحي المذكور عليها اسمه ورفض الدماء التي تجعل له شريكاً في العبادة، فاستقامت هذه الدماء حلقة وصل بين المعبود والعابد تمثلها النص القرآني في سياقاتها الجديدة، وهي أنواع أربعة من الذبائح الدموية (الشعائر[2]، البدن[3]، الهدي[4]، القلائد[5]) استلهمها الإسلام من الجاهلية وقام بتحويلها من بيئة دينية تؤمن بتعدد الآلهة إلى بيئة دينية تؤمن بالإله الواحد. فهل في محافظة الإسلام على هذه الأنواع من الأضاحي اعتراف بالتشريعات الإلهية السابقة وما القرآن إلا تذكير لهذه الشرائع، أم أن إله القرآن قد أغرته هذه الطقوس والعادات الجاهلية فنادى بها بعد أن أضفى عليها قداسة دينية جديدة؟

لم يكن إله العبرانيين الوحيد الذي تقرب له عابدوه بالشحم

---

(1) يحيى سامي، الشرك الجاهلي وآلهة العرب المعبودة قبل الإسلام، دار الفكر العربي، 1986، ص 88.

(2) انظر الحج 22: 33.

(3) انظر الحج 22: 36-37.

(4) انظر المائدة 5: 97.

(5) انظر المائدة 5: 97.

وَبِكَلِمَةِ شَهَادَتِهِمْ وَلَمْ يُحِبُّوا حَيَاتَهُمْ حَتَّى الْمَمَاتِ»[1]. قدم دم الخروف إحالة على القدرة الإلهية الفائقة والقادرة على تحقيق الغريب والعجيب[2] من الأفعال، وهنا يتدخل المتخيّل والأسطوري في النص الديني، وقد وردت تعريفات الدارسين للعجيب والغريب متباينة ومتفاوتة بحسب منطلقات البحث ومقاصده فلئن ذهب مكسيم رودنسون (Maxime Rodinson) إلى القول إن «العجائب أشياء تثير الدهشة والانبهار»[3]، فقد رأى أندريه ميكال (André Miquel) أن «العجيب لا يعدو كونه تكوين مخلوق يصير خرافياً أو أسطورياً بعناصر طبيعية، لكنها لا تجتمع عادة في الوضع الطبيعي»[4]. ويستوقفنا في سياق التعريف بكلمة العجيب ومدى مطابقتها لصورة دم الخروف وما يكتنزه من عجيب وغريب أن «العجيب هو أساساً الغريب أي الحيوان النادر والحجارة الكريمة النادرة والشجرة ذات الثمار النادرة وذات الشكل والسلوك»[5]، وهو ما يجيز لنا القول بأن هذا الخروف إنما هو رب الأرباب وملك الملوك: «هَؤُلاَءِ سَيُحَارِبُونَ الْخَرُوفَ وَالْخَرُوفُ يَغْلِبُهُمْ لأَنَّهُ رَبُّ الأَرْبَابِ وَمَلِكُ الْمُلُوكِ وَالَّذِينَ مَعَهُ مَدْعُوُّونَ وَمُخْتَارُونَ وَمُؤْمِنُونَ»[6]، وفي هذا التمثيل لصورة الرب

---

(1) الرؤيا 12: 11.

(2) جاء في لسان العرب لابن منظور أن: «التعجب والعجب ما يرد عليك لقلة اعتياده». نظر مادة : (عجيب).

(3) انظر حمادي المسعودي، متخيل النصوص المقدسة في التراث العربي الإسلامي، ص 183

(4) نفسه، ص 183.

(5) نفسه، ص 183.

(6) الرؤيا 17: 14.

الدماء، وأضاف أشكالاً أخرى بالزيادة مشترطاً: «المَوْلُودُ البِكْرُ مِنَ البَقَرِ وَالضَّأنِ وَالمَاعِزِ»[1] من الحيوانات التي اكتسبت من خلال آيات أسفار «العهد القديم» ضروباً من القداسة حتى صارت حيوانات مقدسة. فهل تستحيل حيوانات ذبائح الإله القرآني من الإبل والبقر والغنم حيوانات مقدسة هي الأخرى بمجرد حضورها في سياقات خاصة في النص المقدس الإسلامي تماماً للنص الديني من سلطة ببنية وأيديولوجية في تحويل المدنس إلى مقدس والعكس بالعكس صحيح؟ وهل صار الدم في آنٍ واحد وهو يحيل على المفهوم ونقيضه، يعني جدلاً دالاً على النظافة والوسخ معاً ويجعل القذر ظاهراً ويمنح الناس إحساساً بالموت من جهة وشعوراً بتدفق الحياة من جديد من جهة أخرى[2].

لقد مثل الدم السمة المهيمنة على صورة الإله في المسيحية ويتجلى ذلك بشكل مباشر في الدلالة التي تكتنزها صورة دم الخروف: «فَقُلْتُ لَهُ يَا سَيِّدِي أَنْتَ تَعْلَمُ، فَقَالَ لِي: هَؤُلاءِ هُمُ الَّذِينَ أَتَوْا مِنَ الضِّيقَةِ العَظِيمَةِ وَقَدْ غَسَلُوا ثِيَابَهُمْ وَبَيَّضُوا ثِيَابَهُمْ فِي دَمِ الخَرُوفِ»[3]. وتكمن رمزية دم الخروف في الإحالة على القدرة الخالقة عبر الفعل الخارق إذ بدم الخروف تبيض الثياب ويعود إليها بريقها ونصاعتها. ولدم الخروف أيضاً سر آخر عظيم إذ به يتحقق النصر وتتم الانتصار الساحق على الأعداء، «وَهُمْ غَلَبُوهُ بِدَمِ الخَرُوفِ

---

(1) العدد 18: 17.

(2) René Girard, *La violence et le sacré*, Editions Bernard Grasset, 1972, p. 55.

(3) الرؤيا 7: 14.

موغلة في الأسطورة، فهو مولود من رحم عذراء يرتقي بأفعاله وصفاته إلى الكائن السماوي، الذي تأسّس من أجل خلاص البشرية حين تحمل آلامهم وقدم نفسه فداء لهم[1].

إننا نرى أن صورة الإله في الديانات الكتابية تجلّت من خلال آيات النصوص المقدسة محكومة بهواجس الدم ومحمّلة برمزية دموية حتى لكأنّ صورة الإله لا تكتسب شرعية وجودها إلا بمدى اقترانها بمفهوم الدم وارتباطها به، وإن اختلفت مباسم حضور الدم في تجلّيات ملامح هذه الصورة بين التشريع لحق إلهي مكتسب في نصيبه من دم الذبائح كما في اليهودية، وتضحية يسوع المسيح بدمه ليكون رمزاً لخلاص البشرية داخل العقيدة الإيمانية المسيحية، وحرص إلهي على استعادة طقوس دموية وعادات جاهلية أساساً لمحافظة الرب على حقه الطبيعي في سيل دماء الذبائح وتقنينها وتنظيمها بطريقة تجعلها خالصة لاسم الإله الإسلامي، وجميع هذه المنطلقات تعود في أصل نشأتها إلى إله يهودي حافظ على ذبائحه وأضاف إليها أنواعاً أخرى، فتكرّرت عبارات التحذير من مغبّة اختلاط العبرانيين بديانات أخرى في وصايا يهوه عديد المرات ومع جميع أنبياء بني إسرائيل تقريباً، وهو المعنى الذي دأب يسوع على تأسيسه تقليداً دينياً داخل الوسط الكهنوتي: «وَاظِبْ عَلَى تَرْدِيدِ كَلِمَاتِ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ وَتَأَمَّلْ فِيهَا لَيْلَ نَهَارَ لِتُمَارِسَهَا بِحَرْصٍ بِمُوجِبِ مَا وَرَدَ فِيهَا فَبِخِلَافِكَ النَّجَاحُ وَالتَّوْفِيقُ»[2].

---

(1) Raoul Bultmann, *Jésus: mythologie et démythologisation*. Seuil. Paris, 1968, p. 192.

(2) يشوع 1: 8.

بصورة الخروف وإن تتباين مع القول القرآني القائل بأن الذات المتعالية تعلو فوق كل التشبيهات وترقى إلى مصاف التنزيه عن كل تشبيه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾[1]، فإنها تتناغم مع التراث الديني اليهودي في مستوى محاكاته لعبادتهم العجل في زمن النبي موسى.

إن المسيحية لم تنظر إلى يسوع باعتباره كائناً بشرياً أو هو من صنف الأنبياء مثلما صرّح بذلك الآي القرآني في قول «مريم»: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾[2] وإنما عدّته في مرتبة الإله الذي تتكثّف صفة صورته المتعالية بالدم في «العشاء الرباني»، وهو آخر عشاء تناوله المسيح مع تلاميذه الاثني عشر، وهو يعد من أبرز الطقوس وأهمها في المسيحية المحمّلة بأبعاد ومرموزات استقرّت ثابتة في الضمير المسيحي وذهنيته، وقد وردَ في تفسير إنجيل «لوقا» ما يكشف عن الدلالات الظاهرة والباطنة لهذا الطقس الكنسي الذي تحوّل فيه اقتسام يسوع للخبز مع تلاميذه إلى تعبير عن تقسيم جسده الممنوح ذبيحة فداء لتلاميذه ولكل المؤمنين به مثلما تحوّلت كأس الخمرة إلى الدم الحقيقي الذي لا يتمّ التكفير عن البشر إلا به. فـ«العشاء الرباني» هو ذات جسد المسيح ودمه، وهذا الانزياح لا يشمل فقط لاهوت المسيح وناسوته وإنما ينفتح أيضاً على انزياح مزدوج معه يحلّ جسد المسيح ودمه في قلوب المؤمنين بما يمنحهم السند لمواصلة الطريق صوب الإيمان الحقيقي وصلب أهواء الجسد وشهواته الدنيوية، وهو ما يجعل هذه الصورة المتعلقة بيسوع المسيح

---

(1) الشورى 42: 11.

(2) مريم 19: 30.

فبدا اليهود أهل الدماء وقتلة الأنبياء من خلال ما أورده الكتاب المقدس من آيات دالة على اتصافهم بهذه الصفات فهم «رِجَالُ الدِّمَاءِ والغِش»[1]، مارسوا أساليب كثيرة من الفتك والإبادة ومن ضروب الظلم وأنواعه في تاريخ البشرية «وَأَهْرَقُوا دَماً زَكِياً، دَمَ بَنِيهِمْ وَبَنَاتِهِمْ الذِينَ ذَبَحُوهُمْ لأَصْنَامِ كَنْعَانَ وَتَدَنَّسَتْ الأَرْضُ بِالدِّمَاءِ»[2]. وقد عمد مدونو العهد القديم إلى تبرير هذه الصورة الدموية بردِّها إلى استجابة اليهود لأوامر «يهوه» بإبادة الكنعانيين، فقد «جعلوا لعنة نوح تشمل نسل كنعان كله ولعنته تعني الحرمان من حق الحياة»[3]. ولما كان إله العبرانيين هو إله الآباء: «أَنَا هُوَ إِلَهُ أَبِيكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِلَهُ إِسْحَاقَ وَإِلَهُ يَعْقُوبَ»[4] فهو إذن من طلب من «أبرام» تقديم ابنه إسحاق قرباناً دموياً وأنخ في طلب الذبائح الدموية. كان لا بد أن يكون الشعب اليهودي ملزماً بأن يؤسس عقيدته الإيمانية على القوة والعنف والحرب، فهم يفتخرون ويفاخرون بأنهم أبناء «أبرام» الذي اختير وفضل على العالمين[5]، لأن عقد ميثاق الرب «يهوه» مع أبرام تضمن الوعد بإعطائه ونسله من بعده أراضي شاسعة من نهر الفرات إلى نهر مصر: «فِي ذَلِكَ اليَوْمِ قَطَعَ الرب مَعَ أَبْرَامَ مِيثَاقاً قَائِلاً: لِنَسْلِكَ أُعْطِي هَذِهِ الأَرْضَ مِنْ نَهْرِ مِصْرَ إِلَى النَّهْرِ الكَبِيرِ نَهْرِ الفُرَاتِ»[6].

---

(1) المزامير 55: 23.
(2) المزامير 106: 3.
(3) جورجي كنعان، تاريخ يهوه، ص 124.
(4) الخروج 3: 6.
(5) جورجي كنعان، تاريخ يهوه، ص 121.
(6) التكوين 15: 18.

فالصورة الدموية لإله العهد القديم تحيّزت بمثابة المرجع أو المنوال الذي صاغت من خلاله المسيحية ملامح صورة يسوع المسيح ومنه حددت آيات القرآن صورة إله المسلمين أو لعله إله اليهود قد تمسّح مع المسيحية وتأسلم مع الإسلام.

ب- صورة الشعب الدموي

لا شك في أنّ البحث في صورة الكائن البشري يقتضي بالضرورة متابعة الملامح العامة التي منها تتشكل صورة الإله باعتبار أن النصوص المقدّسة قد صرّحت بأن الله خلق الإنسان على صورته ومثاله، وأعطاه من روحه، وجعله شريكاً في صلاحه الإلهي، وتشمل صورة الله عموم الجنسين «خَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَةِ اللهِ ذَكَراً وَأُنْثَى»[1]. وتقول المسيحية بهذا الشبه الذي ناله الإنسان من الله في موهبة قداسة الخلق للتعبير عن سمو القوى الروحية التي أخذها الإنسان من الله الذي أحسن في القرآن خلق الإنسان وأبدع تركيبه ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾[2]. فهل في هذا التماثل الدال على المحاكاة في اليهودية وعلى القيمة في المسيحية وعلى الخلق في الإسلام ما يبرّر اشتراك الإنسان مع الإله في صورة دموية اتصفت بالإله اتصافاً شديداً بأشكال متنوعة وتجسيدات مختلفة، إذ لا غرو أن يكون الإنسان كائناً دموياً شأنه ربه فما ظنّكم؟

تجلى العنصر اليهودي في العهد القديم متفكراً في انسياقه الواعي بانبثاقه من مرجعية دينية شغوفة بالدم وتوّاقة إلى رؤية المشاهد الدامية،

---

(1) التكوين 1: 27.

(2) الانفطار 82: 8.

لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّلَ فَإِنِّي الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّى أَنْ تَزُولَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ لاَ يَزُولُ حَرْفٌ وَاحِدٌ أَوْ نُقْطَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ النَّامُوسِ حَتَّى يَكُونَ الْكُلُّ»[1]؟

إلا أن النصارى بعد صلب المسيح بدّلوا وغيروا الديانة المسيحية في العقيدة والشريعة حيث ألغى الرسول بولس الناموس أو شريعة موسى، وأمر بإبطال العمل بها «إِذْ نَعْلَمُ أَنَّ الإِنْسَانَ لاَ يَتَبَرَّرُ بِأَعْمَالِ النَّامُوسِ لأَنَّهُ بِأَعْمَالِ النَّامُوسِ لاَ يَتَبَرَّرُ جَسَدٌ مَا»[2]، واعتبر العمل بالناموس الموسوي مدعاة لحلول اللعنة «لأَنَّ جَمِيعَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَعْمَالِ النَّامُوسِ هُمْ تَحْتَ لَعْنَةٍ لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ مَلْعُونٌ كُلُّ مَنْ لاَ يَثْبُتُ فِي جَمِيعِ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي كِتَابِ النَّامُوسِ لِيَعْمَلَ بِهِ»[3]. بذلك انقطعت صلة النصارى بالعبادات والشرائع الموجودة في «العهد القديم»، وأصبحت عندهم مقابل ذلك عبادات وشعائر أخرى مختلفة عن السابق، فهل قطعت أيضاً مع عادات اليهود في القتل وسفك الدماء؟

إننا نظفر في المسيحية ببعض الشواهد والآيات الدالة على التشريع للعنف والتسلط وممارسة القوة وسفك الدماء «وَإِذَا وَاحِدٌ مِنَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ يَسُوعَ قَدْ مَدَّ يَدَهُ وَاسْتَلَّ سَيْفَهُ وَضَرَبَ عَبْدَ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ فَقَطَعَ أُذُنَهُ»[4]. وفي هذا الشاهد ما يتعارض مع الحقائق الثابتة والمؤكدة في تعاليم الإنجيل المحمَّلة بتعاليم أخلاقية سامية وقائمة

---

(1) متى 5: 17.

(2) رسالة بولس إلى أهل غلاطية 2: 16.

(3) نفسه، 3: 10.

(4) متى 26: 51.

ومن نوافل القول أن اصطفاء يهوه لشعب إسرائيل وتفضيلهم يؤدّي إلى الشعور العنصري لدى الجماعة المختارة. وتؤكد التوراة أن اختيار «يهوه» لبني إسرائيل وتفضيلهم على العالمين ليس لأجل أخلاقياتهم وتمسكهم بقيم إنسانية سامية: «لَيْسَ لأَجْلِ بِرِكَ يُعْطِيكَ الرب هَذِهِ الأَرْضَ الجَيِّدَةَ لِتَمْتَلِكَهَا، لأَنَكَ شَعْبٌ صُلْبُ الرقَبَةِ»[1] وإنما «لأَنَّ أَرْجُلَهُمْ تَجْرِي إِلَى الشر وَتُسْرِعُ إِلَى سَفْكِ الدمَاءِ»[2]، فالصورة الدموية التي ميّزت الشعب اليهودي بما تتضمنه من تقديس للعنف تبدو مستمدة من ملامح صورة الإله اليهودي الدموي، إذ كان لا بد من هذا التماثل في الصورة ليتحقق الوعد الرباني وتستمر سلطة الإله الربانية على الأرض بواسطة الإنسان إذ لا عدل إلا بتعادل القوى وتشابه الذات المتعالية مع الذات البشرية ليستقر الأمن ويعمّ الاستقرار على الأرض، «فإن كان الديني يعشق العنف فلأن العنف يعدّ دائماً ممراً إلى الأمن»[3]، وأيضاً لأن «المقدّس لا يواجه العنف إلا بالعنف ولا يواجه الانتهاك إلا بالانتهاك»[4]. فهل تواصلت صورة الشعب الدموي في الديانة المسيحية؟ وهل حافظت هذه الديانة على سلطة العنف التي شاعت في التركيبة الاجتماعية والنفسية للشعب اليهودي بما أن المسيح قال في شرحه لعقيدة المسيحية «لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ

---

(1) التثنية 9: 6.

(2) الأمثال 1: 16.

(3) René Girard, *Des choses cachées depuis la fondation du monde*, Grasset et Fasquelle, 1983, p. 57. «Si le religieux adore la violence c'est toujours en tant qu'elle passe pour apporter la paix».

(4) الشيحاني لطفي، الإنسان والمقدس، دار محمد علي الحامي، ط 1، 1994، ص ص 78-79.

وَنُزَوِّدُهُمْ بِسَيِّدِ كُلِّ الأَرْضِ»[1]، فهو هو إله القرآن يعلن مباركته للحرب التي يخوضها المسلمون ليكون المعين لهم ومساعدهم على تحقيق النصر وإبادة الشعوب الأخرى، تقول «الأنفال»: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[2]. هكذا، تنخرط الشعوب والأمم في حروب مقدسة بدوافع دينية تستلهم من خلالها صورة دموية مستوحاة من الذات المتعالية ومن العالم العلوي الذي يتكفل بتنزيل وصايا الشريعة إلى العالم الأرضي مثلما يتكفّل بإنزال وصايا الحرب ومباركتها والمشاركة فيها وإن بأشكال غير مباشرة يطغى عليها الطابع الأسطوري، «وأنزل الله سيفاً من السماء له غمد، قال له جبريل: ربك يأمرك أن تقاتل بهذا السيف قومك حتى يقولوا: لا إله إلا الله وإنك رسول الله»[3].

إن من أبرز الأسباب المؤدية إلى تلون صورة الشعوب بالعنف وبسفك الدماء نزوع كل دين لاحق إلى إلغاء الدين السابق، «فالآنَ انْزِعُوا الآلِهَةَ الغَرِيبَةَ التِي وَسَطَكُمْ وَأَمِيلُوا قُلُوبَكُمْ إِلَى الرب إِلهِ إِسْرَائِيلَ»[4]، وعلى الوتيرة نفسها جاءت المسيحية بصوت عظيم «خَافُوا اللهَ وَأَعْطُوهُ مَجْداً لأَنَّهُ قَدْ جَاءَتْ سَاعَةُ دَيْنُونَتِهِ»[5]، ويلتحق الآي القرآني بالقول، ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[6]. وتؤدي

---

(1) ميخا 4: 12-14.

(2) الأنفال 8: 9.

(3) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، دار الكتب العلمية، ط 1، 1999، المجلد 1، ص 363.

(4) يشوع 24: 23.

(5) الرؤيا 14: 7.

(6) آل عمران 3: 19.

على أسس راقية من النقاء الروحي[1]، وإن كانت دعوة المسيح أتباعه لاستعمال العنف يختلف عن دعوة إله اليهود شعبه إلى اعتماد القوة والعدوان ضدّ مَن يخالفهم في الشريعة، ذلك أن المسيحية تنصح بضرورة عدم الاكتراث بالعذاب الجسدي المادي وتولي أهمية كبيرة للعذاب النفسي «لاَ تَخَافُوا مِنَ الذين يَقْتُلُونَ الجَسَدَ وَلَكِن النَّفْسَ لاَ يَقْدِرُونَ أَنْ يَقْتُلُوهَا، بَلْ خَافُوا بالحَرِي مِنَ الذي يَقْدِرُ أَنْ يُهْلِكَ النَّفْسَ وَالجَسَدَ كِلَيْهِمَا في جَهَنَّمَ»[2]، وكذا الشأن بالنسبة إلى مقولات الرسالة المحمدية إذ يتجلى إله الإسلام شديد الالتصاق بمفهوم العنف متحمساً للحروب والقتال إذ نجد الكثير من آيات النص القرآني شواهد تحرّض نبي الإسلام على القتال وتدفعه إلى ممارسة العنف ضدّ كل من لم يذعن لأوامر دينه ومن لم يستجب لدعوته الجديدة باعتبارها شريعة سماوية مفارقة وأوامر ربانية، فكأن السماء التي أنزلت الوحي القرآني هي التي منها نزل سيف الحرب ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[3].

يتدخل إذن إله القرآن في الحرب ليكون قوة خفية تنصر أتباعه، فمثلما زعم إله التوراة قدرته في الحرب على نصرة شعبه عندما شجع إسرائيل على خوض الحرب المقدّسة باسمه في الصراع على أرض كنعان «قُومِي وَدُوسِي يَا بِنْتَ صُهْيُونَ لأَنِّي أَصْنَعُ قَرْنَكِ حَدِيداً وَأَظْلاَفَكِ أَجْعَلُهَا نُحَاساً فَتَسْحَقِينَ شُعُوباً كَثِيرَةً أُحَرِّمُ غَنِيمَتَهُمْ لِلرَّبِّ

(1) للتوسع انظر متى 5: 39-44؛ لوقا 6: 27-36.
(2) متى 10: 28.
(3) الحج 22: 39.

عديد الشواهد التاريخية التي تكشف عن تورط المقدس في التحريض على العنف لتصبح الجماعة المؤمنة مسلوبة الإرادة منقادة إلى سلطة الذات المطلقة، ولعلّ أوضح الشواهد دلالة على ذلك مصادقة الكنيسة المسيحية على التشريع لممارسة العنف والتعذيب خلال القرن الثاني عشر، فظهرت عدوانية الحرق والصلب وتزيف الدماء بمثابة المشهد الطبيعي والكاشف عن انسياق العنف في سياقات دينية مختلفة، وفي هذا الصدد يقول رينيه جيرار: «عندما يطلق العنف من قيوده يصبح الدم مرئياً فيبدأ بالسيلان ولا يعود ممكناً إيقافه»[1]، ومردّ ذلك يعود إلى علاقة التماثل الجامعة بين الذات الإلهية والذات البشرية، والذي يدعم هذه الفكرة ما ذهب إليه إيميل دوركهايم بقوله: «إن الله والمجتمع لا يمثلان إلا واحداً»[2]، ولعلّ هذا التماهي الذي نلحظه في تحديد ملامح صورة الشعب المنسجمة في مياسمها الدموية مع صورة الإله المعبود تجعلنا نستعيد نظرية «الطوطمية» التي نشأت في المجتمعات القديمة، وشكّل فيها الطوطم بمختلف تشكيلاته[3] القوة المختزلة للآلهة والرامزة إليها، وكانت الرابطة بين الطرفين «بين الإنسان والطوطم متبادلة، فالطوطم يحمي الإنسان والإنسان يبرهن على احترامه

---

(1) نفسه، ص 55.

(2) E. Durkheim, *Les formes élémentaires de la vie religieuse*, 2ème édition, PUF, 1990, p. 295. « *Dieu et la société ne font qu'un* ».

(3) الطوطمية كانت رموزاً حيوانية أو طبيعية أو نباتية، للتوسع انظر: هشام جعيط، في السيرة النبوية (2) تاريخية الدعوة في مكة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط 1، 2007، ص ص 47-48.

خصوصية تفي اللاحق للسابق دوراً عقدياً ونفسياً في شخصية المؤمن، فالدور العقدي يتبدى في رفض آلهة الشعوب الأخرى في حين يتضح الدور النفسي في حاجة المؤمن إلى صدقية عقيدته الإيمانية وإصراره على تثبيتها حقيقة مطلقة طمعاً في الحصول على ما ينتظره من جزاء أو خلاص أو نجاة، ورغم ما يبدو في النصوص المقدسة من تعاقد وتقارب يجعلها نصوصاً مركّبة لا في بنيتها الشكلية وإنما أيضاً في ما تطرحه من مضامين وقصص وأفكار وإن بآليات مختلفة وأساليب متباينة، فإنها تلتقي في مدار سياقي واحد يبرز فيه المؤمن ملتزماً بشريعته التزاماً يمتدّ إلى حدود إقصاء الآخر، وهو ما يفرز طبيعة عدوانية تعلها تعود في أصل ظهورها إلى الشكل الخرافي والعجيب الذي تجلت فيه صورة الإله المنخرط في عتمة الميثولوجيا أطولوجيا، فاستحال الله رب الأرباب بالإفراد «الرب بَهْوَهْ إِلٰهٌ عَظِيمٌ مَلِكٌ كَبِيرٌ عَلَى كُل آلِهَةٍ»[1]، فكان لزاماً على كلّ شعب أن يرتقي بمعبوده إلى هذا المصاف من التعالي بما يفرض تبرير العنف من أجل المحافظة على هذا المثال النموذج لصورة الإله، فتحوّلت صورة الشعب إلى سيف ملطخ بالدماء محرضة على العنف من أجل كلمة قد تكون سواء بين جميع الديانات.

هكذا «يظهر العنف المؤسس كما رأينا عملاً من أعمال المقدّس وليس من أعمال البشر، فيطرد نفسه منسحباً تاركاً المجموعة تعيش خارجاً عنه»[2]. والمتأمّل في سجل تاريخ الأديان الكتابية يلحظ

(1) المزامير 95: 3-5.

(2) R. Girard, *La violence et le sacré*, p. 398.

للطوطم بأساليب مختلفة»[1]، فتحركت دموية صورة الإله لتستقرّ في صورة الشعب المؤتمر بأوامر الرسل والأنبياء المؤتمنين على رسالة الله للإنسانية جمعاء، فمثلما قامت اليهودية بعملية اصطفاء «يهوه» إلهاً قبلياً خاصاً بهم وحدهم وقائداً حربياً وملكاً على كل الآلهة، «عَلَوْتَ جِدّاً أَيُّهَا الرب يَهْوَهُ عَلَى كُلِّ الآلِهَةِ»[2]، عمدت المسيحية إلى تعميق قوة الذات الإلهية بأن جسّدته في ثلاثة أقانيم «الأب والابن والروح القدس» وهؤلاء الثلاثة هم واحد، وكذا فعل الإسلام حين اختزل الكل في واحد يحتكر الأقدار ويتحكّم في أرض العباد والمعباد: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[3].

هكذا تتضح الصلة الجامعة بين صورة الشعب وصورة الإله في إطار علاقة كل منهما بالدم في سياقاته الدينية بما أن الإنسان خلق على صورة الله متصفاً بصفاته قبل الوقوع في الخطيئة الأولى. فهل تمثل الصورة الدموية للشعوب عامة الجزء من صفات آدم التي ما زالت باقية فيه وفي نسله من بعد سقوطه في الخطيئة محافظاً على الجزء الباقي من صورة الله في الإنسان، أم أنّ الصورة الدموية لنسل آدم ضرب من الخيانة التي يقترفها ابن آدم على الأرض وهو المجبول على خيانة الرب «حَقّاً إِنَّهُ كَمَا تَخُونُ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا هكَذَا خُنْتُمُونِي يَا بَيْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ»[4]؟

---

(1) سيغموند فرويد، الطوطم والتابو، ص 6.

(2) المزامير 97: 3-5.

(3) الإخلاص 112: 1-4.

(4) إرميا 3: 20.

2- في البدء كان الدم

لقد استقر في الوجدان الجمعي للبشرية أن فعل إراقة الدماء يرتبط شديد الارتباط بفكرة الموت دائماً في استعادة لقصة قتل قابيل لأخيه هابيل منذ فجر الإنسانية البعيد، وبسبب ذلك ساد الاعتقاد بأن حياة الإنسان تكمُن في دمه وأن الدم هو سر الحياة، فكلما حافظ الإنسان على دمه من السفك أو النسفح أو الإراقة كان قادراً على الاستمرار في الحياة والمحافظة على وجوده، ونعلّ ذلك ما أكسب الدم قدسيته في الحياة وفي النصوص الدينية التي ألحّت على ضرورة المحافظة عليه وتحريم أكله وسفكه بسياقات مختلفة في الكتب الدينية، يذكر الآي القرآني مضمون الميثاق الذي كان جمع بين الذات الإلهية وشعب بني إسرائيل بعدم سفك الدماء وإن كان دمهم، فيقول في هذا الميثاق: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾[1].

إن نظرة النص القرآني إلى مفهوم الدم والدعوة إلى المحافظة عليه تعودان إلى القيمة البيولوجية والرمزية التي تجعل للدم دوراً كبيراً في استمرار حياة الإنسان. ولا شكّ في أن الوظائف التي ينهض بها الدم داخل جميع أجزاء الجسم البشري لا تقتصر على مدّها بالغذاء وبما تحتاج إليه من ماء وهواء ومن مساعدة خلايا الجسم على الاضطلاع بأدوارها في بساطة ويُسر كبيرين وإنما يعمل الدم أيضاً على

---

(1) البقرة 2: 84-85.

أشعل «إيل» أعظم آلهة الشعوب العربية القديمة حرباً ضدّ أبيه لأنه أهان أمه الأرض، ثم توهّم إمكانية أن يغدر به ابنه الوحيد «شديد» يوماً فذبحه وسفك دمه[1]. ورغم المياسم الأسطورية والخيالية التي تسمُ حضارات الشعوب القديمة وتميّزها أحياناً بعضها عن بعض، فإنّ هذه الأديان والمعتقدات قامت على مفهوم الدم سواء من خلال الرابط الدموي والقرابة الدموية أو من خلال الصراع والحروب الدموية. أما الرابط الدموي فيتمثّل في توزيع مهام الألوهية إلى مَن هم من نسل الإله وأبنائه وأما الصراع الدموي فيتبدى في إمكانية أن تخوض الآلهة حروباً فتّاكة ودامية مع مَن هم من نسله للمحافظة على ألوهيته. وفي هذا المجال تقول الأسطورة في العقائد الكنعانية إن: «إله السماء أي والد إيل ستم حربه مع ابنه فبعث إليه ببنائه الثلاث عشتروت وسميرنا ويعلكي يوقعن به، لكن إيل استمالهن وتزوجهن، وولد لإيل من عشتروت سبع بنات يعرفن في الأساطير الكنعانية بالترابيات، وأنجب من سميرنا سبعة ذكور، ثم أنجب من عشتروت إلهين آخرين هما الشوق والعشق»[2].

ونجد أمثلة على حضور فكرة القرابة الدموية المرتبطة بالصراع في حضارات الهنود واليابانيين، تقول الأسطورة «الشنتية» في العقيدة اليابانية إن الإلهين الشابين «إيزاناجي» و«إيزانامي» أنجبا إلهاً اسمه «تسكوبومي»، وهو إله القمر الذي أرسله أبواه على قوس قزح ليستقر

---

(1) انظر حسن الباش، القرآن والتوراة أين يلتقان وأين يفترقان؟، قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، د. ت، ص 40.

(2) شوقي عبد الحكيم، الفولكلور والأساطير العربية، دار ابن خلدون، بيروت، 1978، ص 64.

التخلص من الفضلات الحيوية للجسم والمحافظة على كمية المياه به وتنظيم درجة الحرارة فيه، وجميع هذه الوظائف هي التي أكسبت الدم قيمة مهمة إذ نظر إليه القدماء بكونه واهب الحياة وسرها ونظرت إليه النصوص المقدسة نظرة مزدوجة تتراوح بين التحريم والتقديس.

وقد سجل مفهوم الدم حضوراً بارزاً في الديانات الوضعية القديمة، واحتل حيّزاً شاسعاً في المخيال الشعبي وفي الأساطير الغابرة إذ كان جميعها يقوم على ممارسات وطقوس تدعو إلى المزيد من سفك الدماء، وكان السحرة في قديم الزمن يستخدمون دم الإنسان من أجل إتمام طقوسهم وشعوذتهم[1]. وقد أشار المؤرخ اليهودي برنارد لازار (Bernard Lazare) في كتابه اللاسامية إلى أن استخدام الدم من قبل السحرة يعود إلى الماضي السحيق للوجود البشري، وأن حوادث الدم هي مفاهيم انتشرت بين عامة الشعب اليهودي، وهي ليست خرافة وإنما من علوم السحر والشعوذة التي تتطلب استعمال الدماء واستغلالها عند أداء بعض الطقوس الدينية[2]. وجاءت أكثر الدراسات المتخصصة بالشرق القديم على معظم ما كان لدى شعوب ما بين النهرين من عادات وديانات ومعتقدات حضر فيها مفهوم الدم أسّ من أسس ممارسة الطقوس والعبادات، وحضر الدم كذلك للتعبير عن الصراعات والحروب الدموية التي كانت تنشأ داخل المرجعية الدينية الواحدة أو بين مرجعيات دينية مختلفة في شكلها ومضمونها حتى لكأنّ الدم وسيلة لنشر الديانة وتثبيتها، ففي العقائد الكنعانية

---

(1) انظر يوهلنج شدرل لوران، الكنز المرصود في قواعد التلمود، ترجمة يوسف حنا نصر الله، كنوز للنشر والتوزيع، د. ت، ص 33.

(2) للتوسع انظر جفري باريندي، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص 12.

والنسور[1]. وتعود دلالة حرمة الدم وتحريمه إلى الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، ذلك أن أغلب الآيات التي تتعلق بمفهوم الدم تقترن إما بسياقات تاريخية ترتبط بالجريمة البشرية الأولى وأطوار أحداث قصة قابيل وهابيل أو قصة يوسف مع إخوته أو قصة موسى مع فرعون وإما بمدلولات تشريعية متصلة بتحريم أكل الدم والنهي عن ذلك. فاستحال الدم من خلال حضوره المكثف في النصوص المقدسة من المفاهيم الكبرى والمحددة لتوجهات كل ديانة من الرسالات السماوية الكتابية، وهو من أهم العلامات التي تتصدر هذه النصوص، وإن اختلفت تجليات حضوره سياقياً ودلالياً يظلّ مفهومه من الرهانات التي استسلمت لها مسلمات النصوص المقدسة المتعالية لتركن هذه الشرائع بما يمليه عليها حضور الدم بتصريفاته المختلفة في تأسيس حضارتها وقداسة نصها الديني.

إن ما يلفت الانتباه في الكتاب المقدس في استعمالاته لمفهوم الدم هو إدراج هذا المفهوم في سياقات استعارية مجازية من أبرزها تشبيه الدم المسفوك أو المسفوح بالماء تارة «سَفَكُوا دَمَهُمْ كَالْمَاءِ حَوْلَ أُورُشَلِيمَ وَلَيْسَ مَنْ يَدْفِنُ»[2]، وبالتراب تارة أخرى «وَاضَايَقَ النَّاسُ فَيَمْشُونَ كَالْعُمْيِ لأَنَّهُمْ أَخْطَؤُوا إِلَى الرَّبِّ فَيُسْفَحُ دَمُهُمْ كَالتُّرَابِ وَلَحْمُهُمْ كَالْجِلَةِ»[3]. إن في هذا التشبيه الذي حواه العهد القديم وقرن فيه بين الدم والماء والتراب ما يفرز شواهد تستعيد بعض العناصر التي استقرت في الضمير الجمعي وفي المخيال الشعبي

(1) انظر سورة المائدة 5: 3؛ الأنعام 6: 145؛ النحل 16: 115.

(2) المزامير 79: 3.

(3) صفنيا 1: 17.

في السماء، ثم أنجبا إلهاً للعواصف وإلهاً للنار، وجرى صراع بين الآلهة والأبناء انتهى بانتصار آلهة الشمس[1].

إننا نتبيّن أن مفهوم الدم بأشكال تجلياته ومختلف استعمالاته ترتدّ أهميته إلى بداية الخلق، ثم تطور حضوره في الأساطير وفي المعتقدات والأديان، وقد تفرقت الدلالات الرمزية لمفهوم الدم لتستقر في النصوص المقدسة تجسيداً للبُعد العجائبي الذي رافق هذه النصوص وتعبيراً عن فكرة الصراع والحروب الدموية التي وردت سمة للكتب السماوية مهيمنة، وهي سياقات إبستيمية احتفت بها الأساطير القديمة وتمثّلتها مضامين لأديانها ومعتقداتها، فكان الدم في البدء وفي المنتهى، ولكن كيف تعاملت النصوص المقدسة مع هذا التراث الأسطوري العجائبي؟ هل استلهمته برمّته أم تصرفت في دلالاته بما يتماهى وقداسة الرسالات السماوية؟

أ- حضارة الدم ورهانات النص الديني

ورد مفهوم الدم في النصوص المقدسة في مضامين معرفية متعددة وسياقات دلالية متنوعة هي في النص القرآني تنزع في مجملها إلى التركيز على معنى حرمة الدم حيواناً كان أو بشراً، وأصدر في شأنه تشريعات تبلغ صيغة التحريم سفكاً أو تناولاً بوصفه رجساً محرّماً طبيعة وشرعاً ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2]، وقد تكرّرت صيغة التحريم في عدد كبير من الآيات

(1) انظر حسن البنّا، القرآن والتوراة، أين يتفقان وأين يفترقان؟، ص 57.
(2) البقرة 2: 173.

تَعْلَمُونَ﴾[1]، تخبرنا هذه الآية عن موقف الملائكة من رغبة الذات الإلهية في جعل خليفة لها في الأرض «والرغبة هي دائماً وأولاً تفكير في الرغبة»[2]، لأن إخبار الله الملائكة بأنه سيخلق بشراً يستخلفهم في الأرض للسعي فيها وعمارتها قد يكون المغزى منه هو التفكير في تداعيات عملية الخلق وما ستفرزه من خطيئة مقترفة من آدم وحواء ومن لعنة تلحق بإبليس، كما أن علم الملائكة بمواصفات هذا الإنسان المخلوق الجديد العجيب وبأنه سيفسد في الأرض ويملؤها دماء وقتلاً وكفراً يضع احتكار المتعالي موضع سؤال ومحلّ مراجعة أو إعادة نظر[3]؟

إننا نتبيّن ميل النصوص المقدسة إلى الإغراب والتخييل نتيجة الاستعمالات التي رافقت الحديث عن الدم الذي صار في هذ النوع من النصوص عاملاً أساسياً في إنشاء صور رمزية تتوفر على «الغريب والعجيب»[4]، ويتدخل الفكر الأسطوري في التعبير عن الصورة المفارقة التي تحيط بالأنبياء في الفكر الديني الإسلامي خاصة بأن تجعل من مولد نبي ضرباً من المعجزة[5] أو أن تخرّ الأصنام متساقطة

---

(1) البقرة 2: 30.

(2) R. Girard, *Des choses cachées depuis la fondation du monde*, p. 434.

(3) انظر الآية: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾، النمل 27: 65.

(4) انظر محمد أركون، **الفكر الإسلامي: قراءة علمية**، ترجمة هاشم صالح، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1987، في تعريفه لكلمة الغريب والعجيب بقوله: (ما هو رائع يستحيل الإتيان به)، ص 226.

(5) للتوسع، انظر الفيروز أبادي، **القاموس المحيط**، ج 2، ص 180، في تعريفه لمفهوم المعجزة، «أعجزه الشيء فاته وفلانٌ وجده عاجزاً وصيّره عاجزاً، والتعجيز التثبيط، ومعجزة النبي ﷺ ما أعجز به الخصم عند التحدي».

المبادئ الكبرى التي انبنت عليها عملية خلق الكون، وهي الأصول الأربعة (الماء والتراب والهواء والنار)، فلماذا تخيّر العهد القديم عنصرين هما الماء والتراب وأغفل الطرفين المتبقيين وهما الهواء والنار؟

إنّ تشبيه الدم بالماء والتراب في النص اليهودي المقدس لا نلحظ له حضوراً في النص القرآني الذي تفرد بصياغة علاقة توليدية بين الدم واللبن، ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾[1]، تخبرنا هذه الآية القرآنية عن حقيقة علمية مفادها أن اللبن ينتج من بين فرث ودم يعني جدلاً أن عملية تكوين اللبن ناجمة عن تمازج بين الدم والطعام بعد هضمه، وهذه الحقيقة العلمية التي جاء بها القرآن والمتعلقة بطريقة إنتاج الأنعام للبن إذا ما انسحبت على المرأة في كيفية إنتاجها هي الأخرى للبن، فإنها تدحض الاعتبار الوارد في آية العهد القديم التي تخبرنا بأن «لَيْسَ كُلُّ جَسَدٍ جَسَداً وَاحِداً بَلْ لِلنَّاسِ جَسَدٌ وَلِلْبَهَائِمِ جَسَدٌ آخَرُ»[2]، وهو ما يتعارض مع الآي القرآني الذي ينص على أن وظيفة الدم في الإنسان هي نفس وظيفته في البهائم والأنعام.

وينفرد القرآن عن التوراة والإنجيل عندما يُصرح بأن الملائكة هي أول من ذكر كلمة الدماء قبل خلق آدم، تقول «البقرة»: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا

(1) النحل 16: 66.

(2) 1 كورنثوس 15: 39.

عند ولادته أو عند موته كما يتدخل الفكر الأسطوري في أسطرة عذابات الأنبياء كحرقه بالنار أو نفيه وتشريده، «فالتذكير بنضال الأنبياء وانتصاراتهم ومقاومة الشعوب العاصية وفشلها ليس إلا نوعاً من إعادة تنشيط الحالات النموذجية القصوى لزمن مطلق تأسيسي»[1].

وإن مقاربة هذه الأبعاد الأسطورية المتوافرة على حضور كبير للمتخيل العجائبي عبر آلية النقد التاريخي سرعان ما تكشف عن أنواع الإضافات وتجلياتها في وقائع المرويات القرآنية بالقياس إلى معطيات التاريخ الواقعي المحسوس[2]، كما أن التحليل البنيوي لوقائع القرآن وللأحداث الواردة في المرويات اليهودية وفي التراث الديني المسيحي يفرز اشتغال هذه النصوص المقدسة على الطريقة نفسها التي يشتغل بها الفكر الأسطوري على الأساطير القديمة لإنتاج المعنى وهيئته، وإن كان النص القرآني أكثرها التصاقاً بهذا التفكير المثولوجي[3]، بما هو نص ينحو باتجاه التعمق في إضفاء طابع أسطوري موغل في العجيب والغريب داخل أقاصيصه، حتى لكأنه يخاطب وعياً بشرياً مفتوحاً على العجيب ويوجّه مروياته نحو ذهن إنساني قابل لإدراك الغريب المدهش واستيعابه والتماهي معه كما لو كانت هذه القصص الدينية القائمة على أركان أسطورية والمعبرة عن مضامين عجائبية قصصاً واقعية ووقائع حقيقية تكتسب قيمتها من خلال جريانها في نسق المقدس والمثالي،

---

(1) محمد أركون، الفكر الإسلامي: قراءة علمية، ص 203.

(2) للتوسع انظر تركي علي الربيعو، «حدود العلاقة بين الأسطورة والتاريخ في المصادر التاريخية الإسلامية»، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 76-77، 1990، ص ص 38-39.

(3) للتوسع انظر محمد أركون، الفكر الإسلامي، قراءة علمية، ص 204.

فالأسطورة من هذه الوجهة المعرفية هي «قصة مقدسة وبالتالي فهي قصة حقيقية»[1].

ونجد في العهد القديم شواهد ناشئة عن التخييل تقوم على قلب المياه دماً عند شروق الشمس «وَبَكَّرُوا صَبَاحاً عَلَى الْمِيَاهِ وَرَأَى الْمُوآبِيُّونَ مُقَابِلَهُمُ الْمِيَاهَ حَمْرَاءَ كَالدَّمِ»[2]، وكذلك «فَقَالُوا: هَذَا دَمٌ قَدْ تَحَارَبَ الْمُلُوكُ وَضَرَبَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً وَالآنَ فَإِلَى النَّهْبِ يَا مُوآبُ»[3]. لقد أصبحت المياه حمراء تشبه الدم في احمرارها نتيجة انعكاس أشعة الشمس عليها، وهو ما يختلف عن طبيعة المشهد المعتاد الذي ينصّ حقيقة على أن أشعة الشمس عند شروقها وانعكاسها على المياه تُكسبه لوناً ورديّاً فاتحاً وليس أحمر كالدم. وتكتسب هذه الصورة أبعاداً رمزية تدلّ على أن تحوّل لون المياه إلى دم حقيقة واقعة في نظر العواميين هو علامة على الحرب التي يُفترض أنها وقعت بين الملوك وخاضوا معركة بعضهم مع بعض.

وتمتد تجلّيات العجيب وتتكثف في استعمالات الكتاب المقدس لمفهوم الدم وتوظيفه في أبعاد تخييلية قد لا ترتقي إلى المعقول، ويبدى ذلك في تصوير علامات القيامة، إذ «تَتَحَوَّلُ الشَّمْسُ إِلَى ظُلْمَةٍ وَالْقَمَرُ إِلَى دَمٍ قَبْلَ أَنْ يَجِيءَ يَوْمُ الرَّبِّ الْعَظِيمِ الْمَخُوفِ»[4]، وذات الصورة التي وردت في سفر «يوئيل» من «العهد القديم» وأخبرت عن

---

(1) مرسيا إلياد، «بنية الأسطورة»، ترجمة، محمد بشوتي، مجلة العرب والفكر العالمي، العدد 13-14، ربيع 1991، ص 87.

(2) الملوك الثاني 3: 22.

(3) الملوك الثاني 3: 23.

(4) يوئيل 2: 3.

الثالِثُ جَامَهُ عَلَى الأَنْهَارِ وَعَلَى يَنَابِيعِ المِيَاهِ فَصَارَتْ دَماً»[1]. إن وقوفنا على هذه النصوص المقتطعة جميعها من «رؤيا يوحنا» اللاهوتي وهو آخر أسفار العهد الجديد يغني المبحث لا في مستوى الاستعمالات التي عمدت إليها النصوص المقدسة في توظيفها لمفهوم الدم من أجل إنتاج صور استعارية ضاربة في مجاهل الترميز والتخييل والأسطوري وإنما في كونه يكشف عن مدى تأثر القديس يوحنا «بسفر الخروج» ثاني أسفار العهد القديم الذي يزخر بأخبار معجزات نبي الله موسى الذي حول أنهار مصر وينابيع المياه فيها إلى دم، وهو ما تسبب في موت كل نفس حية في هذه المياه، بحيث يتكثف البُعد الخرافي الأسطوري في الكتاب المقدس من خلال السياقات المعرفية التي يحضر فيها مفهوم الدم في هذه النصوص الدينية، لكن ذلك لا يعني البتة أن هذه السياقات الدلالية تنحصر قيمتها في إغناء فضاء المتخيل داخل هذه النصوص وإنما تُسهم أيضاً في تأسيس أهم العقائد في الديانة الكتابية.

إن عقيدة غفران الخطايا بدم المسيح قد جاءت في صورة أسطورية مجازية تتوفر على قدر كبير من الغريب والعجيب، «لكن وَاحِداً مِنَ الجُنُودِ طَعَنَهُ بِحَرْبَةٍ فِي جَنْبِهِ فَخَرَجَ لِوَقْتِهِ دَمٌ وَمَاءٌ وَالذِي رَأَى شَهِدَ وَشَهَادَتُهُ حَق وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَقُولُ الحَق لِتُؤْمِنُوا أَنْتُمْ»[2]، يختزل هذا النص الإنجيلي ما حدث للمسيح بعد وفاته وهو على الصليب، حيث تلقى طعنة من أحد العسكر فخرج منه دم وماء.

---

(1) رؤيا يوحنا 16: 4.

(2) يوحنا 19: 34-35.

تحوّل القمر إلى دم نجدها في أسفار العهد الجديد، «تَتَحَوَّلُ الشَّمْسُ إِلَى ظُلْمَةٍ وَالْقَمَرُ إِلَى دَمٍ قَبْلَ أَنْ يَجِيءَ يَوْمُ الرَّبِّ الْعَظِيمِ الشَّهِيرِ»[1]، فالدم في هذه الصورة قد تطابق مع القمر وحلّ محله على وجه التعويض في سياق توظيف الكتاب المقدس لمفهوم الدم ضمن جريانه في الحديث عن العلامات الأساسية لهول يوم القيامة، ونجد شاهداً آخر يخبر عن علاقة المطابقة بين القمر والدم ولكن لا على وجه القلب وإنما على وجه المشابهة، «وَنَظَرْتُ لَمَّا فَتَحَ الْخَتْمَ السَّادِسَ وَإِذَا زَلْزَلَةٌ عَظِيمَةٌ حَدَثَتْ وَالشَّمْسُ صَارَتْ سَوْدَاءَ كَمَسْحٍ مِنْ شَعْرٍ وَالْقَمَرُ صَارَ كَالدَّمِ»[2]، ويختلف هذا الشاهد عن الشاهدين السابقين بكونه لم يخبر عن تحوّل القمر إلى دم وإنما عقد علاقة بين الطرفين، ورغم هذا الاختلاف الطفيف يبدو جلياً التطابق الحاصل بين نصوص العهد القديم ونصوص العهد الجديد إلى الحدّ الذي فيه يتهل اللاحق من السابق.

ومن أمثلة التوالد من جهة الصورة في الكتاب المقدس ما نشأ حول الصورة القائمة على تحول ثلث البحر وينابيع المياه إلى دم، «ثُمَّ بَوَقَ الْمَلاَكُ الثَّانِي فَكَأَنَّ جَبَلاً عَظِيماً مُتَّقِداً بِالنَّارِ أُلْقِيَ إِلَى الْبَحْرِ فَصَارَ ثُلُثُ الْبَحْرِ دَمّاً»[3]، «ثُمَّ سَكَبَ الْمَلاَكُ الثَّانِي جَامَهُ عَلَى الْبَحْرِ فَصَارَ دَماً كَدَمِ مَيِّتٍ وَكُلُّ نَفْسٍ حَيَّةٍ مَاتَتْ فِي الْبَحْرِ»[4]، «ثُمَّ سَكَبَ الْمَلاَكُ

---

(1) أعمال الرسل 2: 2.
(2) رؤيا يوحنا 6: 12.
(3) رؤيا يوحنا 8: 8.
(4) رؤيا يوحنا 16: 3.

وتؤرخ حادثة الصلب للمصير الذي انتهى إليه المسيح ووردت أربع مرات في الأناجيل الأربعة حسب رواية كل من «متى ومرقس ولوقا ويوحنا»، لكن رواية خروج الدم والماء من قلب المسيح جراء طعنة أحد الجنود لم تسجل حضورها إلا في «إنجيل يوحنا» في حين جاءت رواية كل من «متى» و«مرقس» و«لوقا» خالية تماماً من ذكر هذه الطعنة التي أخرجت دماً وماء.

تكشف إذن حضور الدم في حادثة صلب المسيح محمّلاً بأبعاد أسطورية مزجت بين سيلان الماء والدم رغم أنه حضور تأسيسي نشأت خلاله عقيدة غفران خطايا البشرية بدم المسيح بما أن الدم الذي نزف من قلب المسيح هو الكفارة التي بها كفّر عن خطايا جميع البشر. ولا تقتصر الصور العجيبة الغريبة في السياقات التي ذكر فيها الكتاب المقدس مفهوم الدم على مجرّد تداخله في مستوى السيلان مع الماء وإنما يتجاوز الاستعمال هذه الحدود السياقية ليمتدّ إلى درجة إيراده تارة مقترناً بالكمون «كَلاَمُ الأَشْرَارِ كُمُونٌ لِلدَّمِ أَمَّا فَمُ الْمُسْتَقِيمِينَ فَيُنَجِّيهِمْ»[1] وتارة أخرى مرتبطاً بالعنب «رَابِطاً بِالْكَرْمَةِ جَحْشَهُ وَبِالْجَفْنَةِ ابْنَ أَتَانِهِ غَسَلَ بِالْخَمْرِ لِبَاسَهُ وَبِدَمِ الْعِنَبِ ثَوْبَهُ»[2]. ونقرأ أيضاً في السياق الدلالي نفسه «وَتُيُوسٌ مَعَ شَحْمِ لُبِّ الْحِنْطَةِ وَدَمُ الْعِنَبِ شَرِبْتَهُ خَمْراً»[3].

لقد احتل مفهوم الدم في نصوص الكتاب المقدس مراتب مجازية وأوضاعاً استعارية مخالفة للحقيقة علمياً، لكنها تجوز في

(1) الأمثال 12: 6.
(2) التكوين 49: 11.
(3) التثنية 32: 14.

نصوص دينية تحتفي بالعجائبي، ذلك أن اعتبار (كلام الأشرار كموتاً للدم) يُعدّ من قبيل الأمثال والحكم والأقوال المأثورة الواردة في «العهد القديم» الذي يعتبر الكمون من ضمن خيرات الرب المعطاة للإنسان[1]. فهل كان المُراد من القول أن يكون كلام الأشرار من ضمن خيرات الرب المعطاة لدم الإنسان؟ أو يقتضي التأويل القول بأن كلام الأشرار يُعتبر ملطفاً ومسكناً لدم الإنسان بما أن بعض دوائر المعارف الأجنبية مثل «دائرة المعارف لكسيكون الأمريكية»[2] تذهب إلى القول بأن الكمون يسهم في تلطيف دم الإنسان وتهدئته؟ أما ما تعلق بربط الدم بالعنب فهو غريب يراوح بين اعتماد دم العنب لغسل الثياب عوض الماء، وأن يكون دم العنب خمراً للشراب. فهل في هذا العدول عن السياق العادي والانزياح عن المألوف إشارات مجزية إلى دور الدم في التفكر الديني اليهودي في تحصيل المغفرة المشترطة تقديم الذبائح الدموية وتخصيص الدم نصيباً للإله واستخدامه للتطهير والتطهُّر من الذنوب؟ وكذا قيمة الدم في الفكر الديني المسيحي الذي يتحول فيه كأس الخمر المقدّسة إلى دم المسيح الذي نزف، فكان الذبيحة التي سال دمها فداء لخلاص البشرية، فأنشأت هذه العقيدة صورة إحالة الدم على الخمر، ونعتها الصورة نفسها الموجودة في «سفر حزقيال»، «وَتَأْكُلُونَ اللَّحْمَ إِلَى الشِّبَعِ وَتَشْرَبُونَ الدَمَ إِلَى السُّكْرِ مِنْ ذَبِيحَتِي الَّتِي ذَبَحْتُهَا لَكُمْ»[3]، في قول «إشعياء»: «وَأُطْعِمُ ظَالِمِيكِ

(1) انظر سفر إشعياء 28: 25-27.

(2) للتوسع انظر دائرة المعارف الأمريكية، موسوعة ليكسيكون، ط 3، 1963، مادة : (كمن).

(3) حزقيال 35: 19.

من تجاوز العقل وتعطيل لفاعليته وتغييب لدوره»[1]. وقد أسهم حضور الدم المكثف في النصوص الدينية بقسط كبير في إنشاء مرتكزات أساسية لعقائد إيمانية سرعان ما ترتدّ بما تحمله من مضامين ودلالات إلى عقيدة واحدة ذات طبقات نصية إيمانية تتفارق أحياناً وتتعاقد في أحايين كثيرة.

ب- الدم وإبستيمولوجية العنف المقدس

إنّ الدارس المتمعن في المعاني الواردة في آيات النصوص المقدسة التي ذكرت فيها كلمة الدم ومشتقاتها يلحظ أن بعض هذه الآيات جاءت معبرة عن أصول العنف الديني والصراع القائم بين الأديان، وقد جسدت قصة الجريمة الأولى بعد الخلق ومقتل هابيل على يد أخيه قابيل العلامة الدالة على معنى الصراع لا بين الكائنات البشرية فحسب وإنما بين شرائع السماء الواحدة. فكيف تجلّى الدم من المفاهيم التي أسهمت في التعبير عن الصراع الديني بين الديانات السماوية؟ وكيف أمكن لهذه النصوص المقدسة من أن تتزاحم في ما بينها وأن تقيم تعديلات وانزياحات على مضامينها من أجل إحداث تنافر يأبى أن يكون إلا تناغماً بين هذه النصوص؟ «وإذا دلّت هذه التحويرات على شيء فإنها تدلّ على أنّ النصوص يُعاد بناؤها دائماً على النحو الذي يسمح بدخولها في إطار الثقافة السائدة»[2].

---

(1) حمدي المسعودي، متخيل النصوص المقدسة في التراث العربي الإسلامي، ص 201.

(2) قاسم سيزا، الهرمينوطيقا والتأويل، دار قرطبة للطباعة والنشر، الدار البيضاء، ط 2، 1993، ص ص 57-58.

لَحْمَ أَنْفُسِهِمْ وَيَسْكَرُونَ بِدَمِهِمْ كَمَا مِنْ سُلاَفٍ»[1].

وقد يكون من أبرز السياقات الدلالية التي حضر فيها مفهوم الدم في الكتاب المقدس وإصرار هذه النصوص على اعتبار أن نفس الجسد هي في الدم وأن نفس كل جسد هي في دمه، ما جاء في «سفر اللاويين»: «لأَنَّ نَفْسَ الْجَسَدِ هِيَ فِي الدَّمِ فَأَنَا أَعْطَيْتُكُمْ إِيَّاهُ عَلَى الْمَذْبَحِ لِلتَّكْفِيرِ عَنْ نُفُوسِكُمْ لأَنَّ الدَّمَ يُكَفِّرُ عَنِ النَّفْسِ»[2]. وبما أن النفس هي الدم والدم هو النفس حذّر «سفر التثنية» من أكل الدم لأنه بمثل النفس وذلك بقوله: «لَكِنْ احْتَرِزْ أَنْ تَأْكُلَ الدَّمَ لأَنَّ الدَّمَ هُوَ النَّفْسُ فَلاَ تَأْكُلِ النَّفْسَ مَعَ اللَّحْمِ»[3]. لكن السؤال الجوهري يظل قائماً في هذا المستوى من المبحث، وهو يتعلق بدواعي تحريم أكل الدم في نصوص «العهد القديم» لما يثيره هذا التحريم من لبس وتناقض. فهل تحريم أكل الدم يعزى إلى أن الدم هو نصيب الرب من الذبيحة أم أن مردّ هذا التحريم إلى علاقة التماثل بين النفس والحياة حتى لكأنّ تحريم أكل الدم هو تحريم لأكل النفس التي هي حياة الجسد؟ أما القرآن فيظلّ صريحاً في تحريمه للدم بما هو رجس ونجاسة.

إننا لا نجانب الحقيقة إذا ما قلنا إن حضور الدم في الكتاب المقدس والقرآن تحيّز باعتباره عنصراً من عناصر توسيع دائرة الغريب والعجيب في النصوص المقدسة، وهو ما أكسبها أبعاداً أسطورية قد تخرق أحياناً مجال المنطق والمعقولية بما أنّ تجليات العجيب «ضرب

(1) إشعياء 49: 26.
(2) اللاويون 17: 11.
(3) التثنية 12: 23.

إن من أخطر آيات العهد القديم المحكومة بنوازع الصراع والعنف «مَلْعُونٌ مَنْ يَمْنَعُ سَيْفَهُ عَنِ الدِّمَاءِ»[1]، وتكمن خطورة هذه الآية من أسفار اليهود في أنها تؤسس لتوجه ديني قائم على سفك الدماء وعلى الحرب والقتال مغبة أن تحل عليهم اللعنة التي حذّرهم منها كتابهم المقدس، وبما أن كتبة العهد الجديد نثروا في مروياتهم بما جاء به العهد القديم من مقولات ومضامين دينية ووصايا فقد أوردوا آيات تنزع إلى نصب العداء والكراهية لمن ليسوا من المسيحية نسبوها إلى المسيح «لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَماً عَلَى الأَرْضِ، مَا جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَماً بَلْ سَيْفاً»[2]، وهنا تبرز الخلفية الأيديولوجية للمسيحية التي تدعو إلى سفك الدماء ومحاربة كل من يخالف شريعتها ووصايا الرب تتلتقي نصوص العهدين القديم والجديد في فكرة الصراع الديني والحرب من أجل الدفاع عن العقيدة. وتعمد نصوص العهد الجديد إلى إثارة العداء مع اليهود من خلال إسناد صفات دموية إليهم، يقول «إنجيل متى»: «لِكَيْ يَأْتِيَ عَلَيْكُمْ كُلُّ دَمٍ زَكِيٍّ يُسْفَكُ عَلَى الأَرْضِ مِنْ دَمِ هَابِيلَ الصِّدِّيقِ إِلَى دَمِ زَكَرِيَّا بْنِ بَرَخِيَا الَّذِي قَتَلْتُمُوهُ بَيْنَ الْهَيْكَلِ وَالْمَذْبَحِ»[3]، تفصح هذه الآية عن جملة الجرائم الدموية التي اقترفها شعب اليهود بما يستدعي التحريض على الفتك ببني إسرائيل والثأر للأنبياء «حَتَّى يُطَالَبَ هَذَا الْجِيلُ بِدَمِ جَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ الَّذِي سُفِكَ مُنْذُ إِنْشَاءِ الْعَالَمِ»[4]. وتبلغ درجة العداء المسيحي لليهودية مبلغ نعتهم

---

(1) إرميا 48: 10.

(2) متى 10: 34؛ لوقا 12: 51.

(3) متى 23: 35.

(4) لوقا 11: 50.

بأبشع الصفات وأرذل النعوت، فقد قال فيهم المسيح على لسان «يوحنا»: «أَنْتُمْ مِنْ أَبٍ هُوَ إِبْلِيسُ وَشَهَوَاتِ أَبِيكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَعْمَلُوا»[1]، وتذهب الأناجيل الأربعة إلى القول بأن اليهود هم الذين قتلوا المسيح وصلبوه قبل الفصح بيوم واحد[2].

غير أن هذه الفكرة القاتلة بعداء المسيحية لليهودية سرعان ما تختفي في نصوص العهد الجديد وتحديداً في نصوص «أعمال الرسل» ونصوص «الرسالة إلى العبرانيين» إذ نظفر باعتراف المسيحية «بالعهد القديم» أساساً كتابياً وإيمان بعض رجال الدين المسيحيين ببعض أفكار «التوراة». ولعلّ أوضح الشواهد الدالة على ذلك موافقة «الرسول بولس» على حرب الإبادة التي قام بها «شاول» أول ملوك اليهود، «فَطَلَبَ إِلَيْهِ صَمُوئِيلُ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَنْ يُولِيَ عَلَيْهِمْ مَلِكاً فَأَقَامَ اللهُ عَلَيْهِمْ شَاوُلَ بْنَ قَيْسٍ، ثُمَّ عَزَلَهُ اللهُ»[3]، ولم يعترض «الرسول بولس» على عزل «شاول» لأنه ترك شخصاً واحداً حياً وبعض الغنم لم يقم بإبادتهم. واعترف «الرسول بولس» في رسالته إلى العبرانيين بأحقية اليهود في حرب الإبادة التي خاضها اليهود ضد كافة البشر واعتبرها حرباً إيمانية مقدّسة. ومقابل ذلك عدّ المدافع عن أرضه ضد اليهود متمرداً، «بِالإِيمَانِ سَقَطَ سُورُ أَرِيحَا بَعْدَ الطَّوَافِ بِهِ سَبْعَةَ أَيَّامٍ بِالإِيمَانِ لَمْ تَهْلِكْ رَاحَابُ الْبَغِيُّ مَعَ الْكَفَرَةِ لأَنَّهَا قَبِلَتِ الْجَاسُوسَيْنِ بِسَلاَمٍ»[4]. فلا تخال نفسك قد جانبنا الحقيقة إذا سلّمنا بأن الأناجيل

---

(1) يوحنا 8: 44.

(2) التلمود، فصل السنهدرين، طبعة أمستردام، 1943، ص 43.

(3) أعمال الرسل 13: 21-22.

(4) رسالة إلى العبرانيين 11: 30-31.

هيرودس أن يأتيها برأس يحيى، فلمّا فعل ذلك سقط في يديه وجزع جزعاً شديداً»[1]، وقد وسمت هذه المرويات مقتل يحيى بن زكريا بميسم الأسطوري في مشاهد ترقى إلى مصاف المتخيل المفارق لمنطق العقل البشري وخاصة ما تعلق من أحداث كانت ناجمة عن مقتل يحيى بن زكريا، «فلما أبت عليه دعا يحيى بن زكريا ودعا بطشت فذبحه فيه فنبذت من دمه قطرة، فلم تزل تغلي حتى بعث الله عز وجل بختنصر عليهم فجاءت عجوز من بني إسرائيل فدلته على ذلك الدم فألقى الله في قلبه أن يقتل على ذلك الدم سبعين ألفاً منهم على سنّ واحد ليسكن فقتلهم فسكن»[2].

إن الرواة لقصة مقتل يحيى بن زكريا وما رافق موته من أحداث قد تذكرنا بأهوال يوم القيامة في التوراة أو في القرآن واعون بالخلفية التاريخية والدينية التي ينطلقون منها وهم عالمون بمضامين النص القرآني الذي لا يقبل صورة لبني إسرائيل ترسم مخالفة لما استقرّ في الضمير الإسلامي الذي جاء نصّه المقدّس حاملاً لغضب الله على شعب بني إسرائيل بعدما عجز النبي موسى بما أتاه من معجزات عن هداية فرعون وقومه، فحلّ بهم العذاب ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾[3]. وقد مثّل الدم في هذا السياق مثالاً من أمثلة الضربات التي أصابت مصر وهو يعني جدلاً أنّ الدم تنزل ضرباً من العقوبة ونوعاً من العذاب

---

(1) أبو إسحاق النيسابوري، قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس، دار المعارف للنشر، سوسة، 1989، ص 380.

(2) نفسه، ص 379.

(3) الأعراف 7: 133.

الأربعة تختلف عن بقية النصوص في «العهد الجديد» في مستوى العداء لليهودية والكشف عن طبيعتهم العدوانية والدموية التي استنهمها اليهود من إلههم الشغوف بالدماء والساكن في مدينة «صهيون» المنقّبة بمدينة الدماء، «الَّذِينَ يَبْنُونَ صُهْيُونَ بِالدِّمَاءِ»[1].

واستغل النص القرآني مفهوم الدم في سياق حديثه عن بني إسرائيل وعلاقتهم العميقة بالجرائم الدموية وذلك من خلال عرضه لأحداث قصة النبي يوسف مع إخوته الذين تآمروا عليه لأن أباهم يعقوب نبي الله المعروف باسم إسرائيل عند اليهود قد حباه بحبه الشديد وفضله على بقية إخوته، فأرادوا قتله والتخلص منه، واستقر الرأي عندهم أن يلقوا به في البئر وأن يلطخوا بالدماء قميصه ويذهبوا به إلى يعقوب أبيهم دليلاً على صدق زعمهم بأن ذئباً قد افترس يوسف وأكله، ﴿وَجَاءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[2].

ولم تقتصر المدونة الإسلامية في إسناد بعض آيات الدم لليهود إلى النص القرآني وإنما شاركت النصوص الحافة في إظهار الصورة الدموية لشعب بني إسرائيل إذ نعثر في كتاب **عرائس المجالس** للثعلبي عديد المرويات التي يوردها في قصة مقتل يحيى بن زكريا: «الذي قتل يحيى ملك من ملوك بني إسرائيل يُقال له هيرودس بسبب امرأة يُقال لها هردوبا كانت امرأة أخ له يُقال له فيلقوس عشقها، فوافقته على الفجور، فنهاه يحيى وأعلمه أنها لا تحلّ له، فسألت

(1) متى 3: 10.

(2) يوسف 12: 18.

بقوله: «فَيَجْتَازُ الرب لِيَضْرِبَ مِصْرَ فَإِذَا رَأَى الرب الدمَ عَلَى عَارِضَةِ البَابِ وَقَائِمَتَيْهِ عَبَرَ عَنِ البَابِ وَلَمْ يَدَعْ المُبِيدَ يَدْخُلُ بُيُوتَكُمْ ضَارِباً»[1]، فتجلى توظيف مفهوم الدم في التوراة والقرآن محمّلاً بدلالات متناقضة في ما بينهما تتراوح بين كونه مصدر العذاب والموت وكونه مبعث النجاة وعلامة الخلاص من البطش والهلاك. فهل يمكن أن يكون إله التوراة الذي حرص على حماية أتباعه من بطشه وعذابه عبر علامة الدم الملطخة على الأبواب هو ذاته إله القرآن الذي أنزل العذاب والإذلال بشعب بني إسرائيل وأتباع فرعون عبر تسليطه عليهم جميعاً الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم؟ وهل يعبّر هذا الاختلاف الحاصل في سياقات حضور الدم الدلالية عن مقولة الوحدانية بما هي الفكرة الأساسية التي ميّزت الديانات التوحيدية عن غيرها من الديانات الوضعية التي تؤمن بالتعددية في العبادة بما أن اليهودية قد أنشأت تصوراً ذهنياً ومادياً مخصوصاً لإله التوراة تكمن خصوصيته في أن «الوحدانية التي كان يدركها بنو إسرائيل في ذلك الزمن لم تكن وحدانية تفكير ولكنها وحدانية تغليب لرب من الأرباب على سائر الأرباب. ولم يخطُ اليهود خطوة غير هذه الخطوة وهي أن لليهود إلهاً يعلو على آلهة غيرهم من البشر»[2].

غير أن الإسلام ارتقى بالألوهية بعدما خلصها من صفة التجسُّد وصفة القومية إلى مصاف المطلق والمفارق، وهو ما يفسِّر حرص النص القرآني على إضفاء ضروب القداسة على مفاهيمه الدينية

(1) الخروج 12: 23.
(2) عباس محمود العقاد، إبراهيم أبو الأنبياء، دار الهلال، د. ت، ص 60.

الذي نزل بفرعون وقومه، «إن جريانه يحقّق الخاصية المعدية للعنف وحضوره، يعلن عن القتل ويستدعي المآسي من جديد، فالدم يلوث كل ما يمسّه بألوان العنف والموت»[1]. وهو يصل سيل العنف الصادر من السماء ليغطي وجه الأرض أقصاه في اللحظة التاريخية التي تخترق فيها جماعة المشركين وصايا النبي صالح لتنحر الناقة فتجتاح ثمود الأوبئة تحقيقاً لنبوءة صالح وتأكيداً لصدق نبوءته، وعقاب الأوبئة مثل نقطة التقاء بين مرويات القرآن ومرويات التوراة في التعبير عن الغضب الذي أنزله إله العهد القديم على قوم فرعون بأن ألقى عليهم عشرة أنواع من الأوبئة من البعوض والذباب والضفادع إلى آبار البلاد التي امتلأت بالدم، أما غضب إله القرآن على قوم ثمود فقد أنزل عليهم صيحة شديدة من السماء، فاضت بسببها الأرواح وزهقت النفوس ولم يبقَ من ذرية ثمود أحد.

والملاحظ هنا أن مفهوم الدم في النصوص المقدسة قد يحضر للتعبير عن المعنى ونقيضه. فلئن كان في الآي القرآني ضرباً من ضروب العذاب الذي لحق بني إسرائيل في مصر القديمة، فإنه برز في أسفار العهد القديم علامة من علامات النجاة من غضب الإله «يهوه» الذي يطلب من أتباعه ممّن كانوا مغتربين في مصر أن يصبغوا أبواب بيوتهم بالدم كي لا يهلكهم على سبيل الخطأ مع الذين قرّر إهلاكهم حيث «يَكُونُ الدَّمُ لَكُمْ عَلاَمَةً عَلَى الْبُيُوتِ الَّتِي أَنْتُمْ فِيهَا فَأَرَى الدَّمَ وَأَعْبُرُ عَنْكُمْ»[2]، وقد نقل نبي الله موسى هذه التوصية إلى أتباعه

(1) R. Girard, *La violence et le sacré*, p. 55.

(2) الخروج 12: 13.

ومضامينه العقدية، فلم تكن آيات الدم المحرضة على محاربة أعداء الإسلام أو المجسّدة للتشريعات الأخلاقية وللفقه الإسلامي مجرّد استعادة صارمة وسطحية لموروث ديني يهودي أو مسيحي[1]، بقدر ما كانت اختزالاً لرؤية إسلامية تسعى إلى تأسيس تصور جديد للدين ولأركان العقيدة، فكان لزاماً أن يحتل مفهوم الدم بما يحمله من مدلولات رمزية وإحالات معرفية موضعاً بارزاً للتعبير عن صراع ديني أيديولوجي يقوم على رغبة اللاحق في إزاحة السابق وبيان قصوره ونهافته في الإجابة عن أسئلة الخلق والوجود والمصير، بالرغم من أن هذه الأديان الكتابية يكون بعضها أقرب إلى بعض عندما تعود جميعاً إلى الأصول. وبذلك يكون حديث الكتاب المقدس والقرآن عن الدم في أبعاده الدينية والأخلاقية والاجتماعية بأساليب مجازية تتوفر على مكوّنات أسطورية وعجائبية «كفيلاً بإثارة أكبر قدر من الإعجاب وبالتالي بثّ الخضوع في نفوس العامة»[2]. لذلك تعمّد النصوص المقدسة إلى الحديث عن الله وعن الأشياء المحيطة بالخلق والكون بوسائط تعبيرية غير دقيقة أحياناً لأنها نصّ لا يُريد «إقناع العقل، بل يريد إثارة الخيال وشحذ قدرته على التصوير»[3].

هكذا يتحول الصراع بين الأديان إلى عقيدة أساسية يكون فيها حضور الدم في النص المقدس تأصيلاً للعنف وفرصة للإنسان المؤمن

---

(1) للتوسع انظر كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، دار العلم للملايين، ط 4، بيروت، 1965، ص 39.

(2) سبنوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، تعريب حسن حنفي وتقديمه، القاهرة، 1971، ص 231.

(3) نفسه، ص 233.

كي يصبح عظيماً عبر إلحاق الهزيمة بالآخر العدو وإخضاعه إلى دينه بمرجعيات لا تعدو أن تكون دينية مستوحاة من رسالة سماوية تشرع للصراع فوق الأرض وتدفع المؤمن إلى إيجاد ضحية بديلة يستعيض بها عن المخلوق الذي أثار سخطه بمخلوق آخر لا ذنب له سوى أنه قابل للعنف متقبّل له، ليستحيل المقدّس ضرباً من العنف الذي ينضاف إلى عنف آخر بما أنه مثل الكلمة الأخيرة للعنف[1].

فهل يستقيم الدين دون عنف ودون صراع؟ وهل بات قدر مفهوم الدم منحصراً في الإحالة على العنف والقتال باسم الدين في حروب من أجل السماء أو باسم الشرف في معركة من أجل هذه الأرض؟

خاتمة الفصل

إن دراستنا للمحمولات الرمزية للدم في النصوص المقدسة تبدو نوغلاً في خفايا هذه النصوص واستنطاقاً لبُنيتها الشكلية والمعرفية من خلال معالجة السياقات التي وردت فيها آيات الدم ومتابعة الصور التي أنشأتها والمضامين الدلالية التي أنتجتها داخل نصوص موسومة بالقداسة عصيّة على المباشرة بما تتضمّنه من اختفاء جليّ بالغريب والعجيب، وقد انتهينا في هذا الفصل إلى مجموعة من النتائج والاستنتاجات من أبرزها:

أولاً

أسهمت آيات الدم في النصوص المقدّسة وعبر سياقات نصية

---

(1) للتوسع انظر: René Girard, *Des choses cachées depuis la fondation du monde*, p. 39.

والذكر الحكيم أن الفضاء العجائبي والبناء الأسطوري يحضران بكثافة في هذه النصوص ويُكسبانها أبعاداً أسطورية تخييلية لا يمكن القبض عليها إلا بتفكيكها إلى عناصرها الأولية التي تكوّنت منها لتحديد مرجعياتها الثقافية والحضارية والتاريخية، وقد تجلى ذلك في مختلف الأنساق المعرفية التي تنزّلت فيها آيات الدم وخضعت فيها إلى عمليات تحويل دلالي أو عدول معنوي مخالفة للنواميس المعرفية المألوفة، فاستحالت الأسطورة في النصوص الدينية «قصة مقدسة أو هي تعبير يروي قصة مقدسة»[1]، وبذلك يجوز للدم أن يتحول إلى خمر أو ماء كما يجوز لمياه البحر والينابيع أن تنقلب إلى دماء شريطة أن يكون المنجز هو المتخيل وليس العقل أو المعقول لتواصل المخيلة نسج البُعد الأسطوري لآيات الدم.

رابعاً

عمدت النصوص الدينية للرسالات السماوية إلى إرساء نظام خطّي للعنف والتشريع لحروب دموية مرتبطة بعالم السماء ومنجزة بيد الإنسان من أجل الدفاع عن العقيدة، وهي الفكرة التي توارثتها النصوص المقدسة منذ شريعة موسى مروراً بدم المسيح ووصولاً إلى الرسالة المحمدية، فاكتسبت الحرب صفة القداسة وتنزل العنف منزلة المقدس في استجابة لسنطة النص ووصايا الإله، فاستمر العنف المقدس والمبارك دينياً تراثاً معرفياً إنسانياً.

---

(1) حمدي المسعودي، متخيل النصوص المقدسة في التراث العربي الإسلامي، ص 278.

وانساق دلالية في إنشاء صورة للذات المتعالية دموية وروّجت بإصرار كبير لخصائص هذه الصورة انطلاقاً من إله اليهود «يهوه» المحمّل بإسقاطات إضافية صاغها اليهود بعدما اكتشفوا أن الله الذي تمثّلوه لم يكن سوى إله قومي صغير بالقياس إلى آلهة البابليين وبخاصة الإله الكبير «مردوخ»، فكان لا بد من إنشاء صورة أخرى جديدة للإله الأعظم والأكبر والمحارب الشغوف بالدماء والقاطن في مدينة الدماء، وقد تجلّت هذه النقلة النوعية في مفهوم الإله بعد السبي البابلي منذ النبي «إشعياء» ولعلها الصورة النموذج التي استعادتها المسيحية بعد إخضاعها إلى مبدأ التثليث مثلما استلهمها الإسلام بإضافة ضروب من القداسة والمفارقة.

ثانياً

لم تكن الصورة الدموية للذات الإلهية في النصوص الدينية بمعزل عن التأثير في ملامح صورة الذات الإنسانية فوق سطح الأرض حيث تجلّت الشعوب المتدينة يهودياً أو مسيحياً أو إسلامياً محكومة هي الأخرى ببعض الصفات التي استمدّتها من الصورة المتعالية ومن الرمز المفارق، وقد مثلت قصة قابيل وهابيل الحدث الأول الذي وسم الإنسان بكونه كائناً دموياً يقدر على سفك الدماء وسفحها وإراقتها وإباحة حرمتها حتى لكأنّ صورة هذا الكائن البشري الدموي لا تعدو أن تكون صورة الله على الأرض بعد تصغيرها، بما أن الله خلق الإنسان على صورته.

ثالثاً

لقد كشفت آيات الدم الواردة في نصوص الكتاب المقدس

الخاتمة

هنا نحطّ الرّحل لنستعيد ما توصّلنا إليه في رحلتنا مع آيات الدم في النصوص المقدسة من القربان والختان إلى النجاسة والطهارة وصولاً إلى رمزية صورة الآيات الدموية المتّصلة بالعالم العلوي أو العالم السفلي. لقد حاولنا التعمق في نسق جريان الدم في هذه النصوص المفارقة وتبين مضامينه ومحمولاته الرمزية وترصد وظائفه المتعدّدة المعلنة والمخفية.

لقد بيّنت لنا فصول هذا البحث أن مفهوم الدم مثل في نصوص الديانات السماوية اليهودية والمسيحية والإسلامية همزة وصل بين الله والإنسان أو بين السماوي والأرضي، وقد تحيّز عنصراً أساسياً ومكوناً بارزاً من مكونات العلاقة الجامعة بين الطرفين، واتخذت هذه الرابطة الجامعة أشكالاً مختلفة من التجسيدات، فهي تارة قرابين دموية كانت بشرية في مراحلها الأولى، ثم تحوّلت إلى قرابين حيوانية تمثّلتها الأديان بطقوس متنوعة أسهمت اليهودية في تأسيسها تقاليد دينية، وتزاحت عنها المسيحية لتُحقق انزياحاً طقوسياً في تقريب المطابقة بين الخمر ودم المسيح كفارة عن خطايا البشرية، وحين جاء الإسلام جلب معه تصوراً جديداً للقرابين الدموية مشترطاً أن تكون خالصة لله وحده، وهي تارة أخرى ختان مادي فرضه إله التوراة على شعبه

(L'eucharistie)، فتحوّل الخمر الذي شربه المسيح دماً سال من جسده لتخليص الإنسانية من وزر الخطايا وخروجها من جسد الإنسان ليتسنّى للبشر الدخول في ملكوت الرب بنفسٍ نقية وطاهرة من الأدران والذنوب، وهذا المتصوّر الذهني للدم المقدس لا نلحظ له حضوراً في الشريعة اليهودية ولا في الشريعة الإسلامية، وإنما حضر الدم الطاهر في الشريعة الموسوية لمن قدّم حياته من أجل إعلاء وصايا الرب وتكريس تعاليمه والدفاع عنها في حين استقرّ دم الشهيد في الرسالة المحمدية طاهراً موعوداً بالجنة والنعيم هناك في الأعالي ما دامت دماء الشهيد قد أريقت في سبيل الله دون سواه لإدراك النجاة.

ومن خصائص النصوص المقدسة أنها جاءت متفقة في مستوى النظر إلى الصنف النجس من الدم بحيث حرمت جميع الديانات الدم الناجم عن جريمة قتل النفس وإن اختصّت اليهودية بتحريمه داخل القومية اليهودية وأباحته مع من هُم خارج الشريعة الموسوية، واختصّت اليهودية بالتمييز بين الطاهر والمقدّس، فالحيوانات مثلاً تكون إمّا طاهرة وإما نجسة، وليست مقدسة ومحللة، والنجاسة في التوراة ظاهرة طقسية وليست دنساً خلقياً، لذلك جاءت الدماء الخاصة بالنساء حيضاً أو استحاضة أو نفاساً من ضروب النجاسة التي تستوجب الطهارة، وقد دعت إليها نصوص الديانات الثلاث مع تسجيل بعض الفوارق في ما بينها من جهة تقدير المدة الزمنية لنجاسة الدماء الخاصة بأحوال المرأة وخاصة بين التوراة والقرآن، وكذلك من جهة نوعية الدم وأثره في حياة المرأة من حيث المأكل والملبس وعلاقاتها الجنسية مع زوجها.

ولئن كانت نصوص التوراة صارمة في تحديد مدة نجاسة هذه

المختار لاستكمال شروط الإيمان، وعدّلته الكنيسة ليكون علامة نظافة صحية، وأقره إله الإسلام دخولاً في دين الله. وقد يكون هذا الاختلاف الموجود بين النصوص الدينية في الرؤية والتعامل مع الدم المسفوك على عتبات المقدس عائداً إلى غنى هذه النصوص وتنوّع المشارب التي استقت منها مفاهيمها ومضامينها الدلالية، ولعلّ في استبدال المسيحية لقطرة الدم النازلة من عملية الختان بقطرة الماء المستعملة في المعمودية دليلاً واضحاً على قدرة العقل البشري على التصرُّف في المقدَّس وتحويله نحو الوجهة التي تحقّق له إشباعاً روحياً محكوماً بالتبدُّل عبر الأزمنة والعصور.

ورغم هذا الانزياح في تقدير الدم المسفوك لله تقرباً وطمعاً في الغفران يظلّ الدم في هذا المجال نصيب الإله التوراتي من الذبيحة وعلامة عهد بينه وبين شعبه، كما يظلّ الدم عنصراً من عناصر الوازع الديني المحمول على تقوية إيمان المسلم بإله القرآن وعلامة دالة على مفهوم التضحية لإله العهد الجديد.

ويتأكد لنا هذا أكثر مع ما توصلنا إليه من نتائج أخرى خرجنا بها، وهي أنّ قضية الخلاص في الأديان الكتابية بدت على قدر كبير من التشابك والتداخل، وخاصة مع المسيحية التي حصرت مقولة الخلاص في فكرة الفداء التي تمثلها المسيح وأنجزها بأن قدّم نفسه وحياته ضحية وفداء للتكفير عن خطايا لا المسيحيين فحسب وإنما البشرية عامة.

وتنزل «العشاء الرباني» (La cène) الذي أطنبت الأناجيل في الحديث عنه قصة رمزية استلهمت منها الكنيسة بعد حادثة قتل المسيح واقتياده إلى خشبة الصلب الإشارة لتأسيس سر الأفخارستيا

والقرآن أنها محملة بطاقات كبيرة من مظاهر الأسطوري وتجليات العجائبي والغريب من خلال ركون هذه النصوص إلى إنشاء صور رمزية تقوم على ضروب شتى من العدول والانزياح من جهة إدراج مفهوم الدم واستحضاره في أنساق مخالفة للمعهود تقطع كلياً مع نواميس المعقول المألوفة، كأن يتحوّل الماء إلى دم أو يتبدل الدم خمراً إلى غيرها من الصور المجازية الموغلة في العجائبي والمستمدة من الموروث الأسطوري المتقادم في تاريخ الأمم والشعوب.

وآخر نتيجة توصلنا إليها في بحثنا تتمثل في دلالة العنف التي كثيراً ما تشي بها آيات الدم في النصوص المقدسة التي غالباً ما تشرّع للحرب من أجل أهداف تتعاقد بين هذه النصوص، وقد تتفارق حتى لكأن السماء الحاضنة للمطلق والمفارق وحدها هي التي تتحمل مسؤولية إنزال الوحي، ووحدها تتكفل بمسؤولية إعلان الحرب أو السلم فوق هذه الأرض.

ولا نخال أنفسنا مجانبين للحقيقة إذا سلّمنا بأن الشرائع السماوية الثلاث قد أكسبت مفهوم العنف صفة القداسة وباركته، فاستحال إلى مشترك ديني بين جميع الأديان الكتابية تتوارثه الأجيال، وهي تتشرب وصايا السماء، وتستوعب تعاليمها بما أن ما يوصف به الله وينسب إليه تستخدم فيه الألفاظ البشرية التي تعرف الذات الإلهية بما لها ولكن بنفي ما ليس منها.

لقد حاولنا من خلال معالجة مفهوم الدم في النصوص المقدسة أن نجد في الكتب السماوية إمكانات أخرى من إعادة النظر في مسألة قد تكون ظلّت حبيسة المقاربة العلمية وحكراً على العلماء في مجال الطب ومبعدة قسراً عن الطرح الحضاري والدراسة المقارنة ممنوعة

الأنواع من الدماء وكذا الشأن بالنسبة إلى النص الإنجيلي فإن النص القرآني بدا مجملاً في تناوله لهذه المسائل، وهو ما مكّن الفقهاء الإسلاميين من توسيع دائرة الاجتهاد في تفصيل هذا المجمل القرآني لتظلّ طرافة الكتاب المقدس في اعتبار دماء الحيض والاستحاضة والنفاس الخاصة بالمرأة ضرباً من العقوبة الإلهية التي لحقت المرأة جزاء اقترافها للخطيئة الأزلية أو ربما هي تعويض تشريعي مثّل جدلاً حاداً بين العلماء والمفسرين تعلق بإعفاء المرأة من عملية الختان. وتجلى لنا من خلال هذا الفصل تفاعل هذه النصوص المقدسة مع الجسد إلى حدّ المبالغة والإفراط في الهوس بما يفرزه الجسد من دماء شكّلت مادة كلامية ومضامين معرفية لشأن أرضي بيولوجي إنساني في نصوص متعالية وسماوية.

وقد تأكد لنا ونحن نعالج محاور الفصل الثالث من البحث أن آيات الدم وردت في نصوص المدونة المعتمدة محملة بمحمولات رمزية أنشأت صورة للإله تبدت دموية فيها شغف كبير بالدم لإله التوراة وسمته نصوص العهد القديم بصفات دموية خارقة لحدود المنطق والمعقول، وعمدت نصوص الإنجيل والقرآن إلى رسم ملامح للألوهية في صورة دموية هي الأخرى تنزع إلى إضفاء قدرات خارقة للذات الإلهية التي ترى في مفهوم الدم بُعداً رمزياً للقوة والعظمة وبسط النفوذ على البلاد والعباد.

وإذا كانت صورة الإله دموية وكان الله قد خلق الإنسان على صورته وهيئته فإنّ صورة الشعب تستحيل بالضرورة دموية حتى لكأنّ هذه الصورة هي ما تبقى من صفات الله فوق هذه الأرض. واللافت للانتباه في السياقات التي وردت فيها آيات الدم في الكتاب المقدس

عنهما رغم أن الدم هو سرّ الحياة ومكمن الوجود للنفس، نتوق إليه في صمت ولا نمتلك الجرأة للحديث عنه كلما تعلّق بالشرف أو بالثأر مخافة أن نتذكر رمزية اللون الأحمر للدم في متخيل التراث العربي القديم إذ هو يرمز إلى اللؤم والعداء، ويختزل معاني الغضب والعنف، وكذلك مخافة أن نستعيد أحداث قصة الجريمة الدموية الأولى، فنكون مضطرين إلى أن نواري سوأة أخرى قد يسجلها علينا التاريخ. ونحن إذ نعالج آيات الدم في الكتب السماوية لا نزعم أننا نركب خطر خيانة النصوص المقدسة التي ترتدّ لا محالة إلى نصّ واحد يتناغم فيها اللاحق مع السابق ويتفاعل معه، وإنما لا سبيل لنا كي نبقى أوفياء لهذه النصوص إلا بنقدها وإعادة تفكيك عناصرها ومضامينها كي نعيد فحص العلاقة بين المقدس والدنيوي أو بين المتخيل والمعقول، وذلك من خلال مراجعة ما ظنّ أنه في مأمن من كل مراجعة.

فهرس الآيات

1- فهرس آيات الكتاب المقدّس

أ- آيات العهد القديم

السفر	الأصحاح	الآيات	رقمها	الصفحة
التكوين	1	صَنَعَ اللهُ الإِنسانَ عَلى صُورةِ اللهِ ذكرًا وأُنثى.	27	126
	9	لَيسَ لأَجلِ بِرِّكَ يُعطيكَ الرَّبُّ هذهِ الأَرضَ الجَيِّدةَ لِتَمتَلِكَها، لأَنَّكَ شَعبٌ صُلْبُ الرَّقبةِ.	1-6	128
	9	سافِكُ دَمِ الإِنسانِ بالإِنسانِ يُسفَكُ دَمُهُ لأَنَّ اللهَ عَلى صُورتِهِ عَمِلَ الإِنسانَ فأَثمِروا أَنتُم وأَكثِروا وتَوالَدوا في الأَرضِ وتَكاثَروا فيها.	5-7	90
	15	لِنَسلِكَ أُعطي هذهِ الأَرضَ مِن نَهرِ مِصرَ إِلى النَّهرِ الكَبيرِ نَهرِ الفُراتِ.	18	127
	17	فأَكونُ إِلهًا لَكَ ولِنَسلِكَ مِن بَعدِكَ.	7	115
	17	أَيُّ أَغلَفٍ مِنَ الذُّكورِ لَم يُختَنْ في لَحمِ غُلفَتِهِ، تُقطَعُ تِلكَ النَّفسُ مِن ذويها، لأَنَّهُ قَد نَقَضَ عَهدي.	14	43

اللاويون	2	قُلْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: إِذَا حَبِلَتِ امْرَأَةٌ وَوَلَدَتْ ذَكَراً تَكُونُ نَجِسَةً سَبْعَةَ أَيَّامٍ، كَمَا فِي أَيَّامِ طَمْثِ عِلَّتِهَا تَكُونُ نَجِسَةً، وَفِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ يُخْتَنُ لَحْمُ غُرْلَتِهِ، ثُمَّ تُقِيمُ ثَلاَثَةً وَثَلاَثِينَ يَوْماً فِي دَمِ تَطْهِيرِهَا، كُلَّ شَيْءٍ مُقَدَّسٍ لاَ تَمَسُّ وَإِلَى الْمَقْدِسِ لاَ تَجِيءُ حَتَّى تَكْمُلَ أَيَّامُ تَطْهِيرِهَا.	2-5	102
	3	يَحْرِقُهَا الْكَاهِنُ عَلَى الْمَذْبَحِ لِتَكُونَ طَعَاماً وَقُوداً لِلرَّبِّ.	11	38
	5	إِذَا خَافَ أَحَدٌ خِيَانَةً وَأَخْطَأَ سَهْواً فِي أَقْدَاسِ الرَّبِّ يَأْتِي إِلَى الرَّبِّ بِذَبِيحَةِ لإِثْمِهِ كَبْشًا صَحِيحًا مِنَ الْغَنَمِ وَيَدْفَعُهُ إِلَى الْكَاهِنِ عَنْهُ بِكَبْشِ الإِثْمِ فَيُصْفَحُ عَنْهُ.	14-19	36
	15	وَإِذَا كَانَتِ امْرَأَةٌ لَهَا سَيْلٌ وَكَانَ سَيْلُهَا دَمًا فِي لَحْمِهَا فَسَبْعَةَ أَيَّامٍ تَكُونُ فِي طَمْثِهَا وَكُلُّ مَنْ مَسَّهَا يَكُونُ نَجِسًا إِلَى الْمَسَاءِ [. . .] وَإِنِ اضْطَجَعَ مَعَهَا رَجُلٌ فَكَانَ طَمْثُهَا عَلَيْهِ يَكُونُ نَجِسًا سَبْعَةَ أَيَّامٍ وَكُلُّ فِرَاشٍ يَضْطَجِعُ عَلَيْهِ يَكُونُ نَجِسًا.	19-24	99

التكوين	27	كَثْرَةُ خِنْطَةٍ وَخَمْرٍ.	28	72
	49	دَمُ العِنَبِ.	11	73
	49	رَابِطٌ بِالكَرْمَةِ جَحْشَهُ وَبِالجَفْنَةِ ابْنَ أَتَانِهِ غَسَلَ بِالخَمْرِ لِبَاسَهُ وَبِدَمِ العِنَبِ ثَوْبَهُ.	11	146
الخروج	3	أَنَا هُوَ إِلَهُ أَبِيكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِلَهُ إِسْحَاقَ وَإِلَهُ يَعْقُوبَ.	6	127
	12	فَيَجْتَازُ الرَّبُّ لِيَضْرِبَ مِصْرَ فَإِذَا رَأَى الرَّبُّ الدَّمَ عَلَى عَارِضَةِ البَابِ وَقَائِمَتَيْهِ عَبَرَ عَنِ البَابِ وَلَمْ يَدَعِ المُهْلِكَ يَدْخُلُ بُيُوتَكُمْ ضَارِبًا.	23	155
	13	خَصِّصْ لِي كُلَّ بِكْرٍ ذَكَرٍ، كُلَّ فَاتِحِ رَحِمٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ هُوَ لِي.	2	26
	22	وَكَذَلِكَ تَفْعَلُ بِبَقَرِكَ وَغَنَمِكَ سَبْعَةَ أَيَّامٍ، تَبْقَى البِكْرُ مَعَ أُمِّهِ، وَفِي يَوْمِهِ الثَّامِنِ تُقَدِّمُهُ لِي.	30	37
	42	يَكُونُ الدَّمُ لَكُمْ عَلاَمَةً عَلَى البُيُوتِ الَّتِي أَنْتُمْ فِيهَا فَأَرَى الدَّمَ وَأَعْبُرُ عَنْكُمْ.	13	154
اللاويون	1	فَيَرْضَى الرَّبُّ بِعَجْلِ البَقَرِ بَدِيلاً عَنْ صَاحِبِهِ لِلتَّكْفِيرِ عَنْ خَطَايَاهُ.	4	37

لاويون	17	لأَنَّ نَفْسَ كُلِّ جَسَدٍ دَمُهُ.	14	118
	17	فَقُلْتُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَأْكُلُوا دَمَ جَسَدٍ مَا لأَنَّ نَفْسَ كُلِّ جَسَدٍ دَمُهُ مَنْ أَكَلَهُ يُقْطَعْ.	14	118
لعدد	17	الْمَوْلُودُ الْبِكْرُ مِنَ الْبَقَرِ وَالضَّأْنِ وَالْمَاعِزِ.	18	122
	35	وَلِيُّ الدَّمِ يَقْتُلُ الْقَاتِلَ حِينَ يُصَادِفُهُ يَقْتُلُهُ.	20	92
	35	وَلِيُّ الدَّمِ يَقْتُلُ الْقَاتِلَ حِينَ يُصَادِفُهُ.	22	90
	35	لاَ تُدَنِّسُوا الأَرْضَ الَّتِي أَنْتُمْ فِيهَا لأَنَّ الدَّمَ يُدَنِّسُ الأَرْضَ، وَعَنِ الأَرْضِ لاَ يُكَفَّرُ لأَجْلِ الدَّمِ الَّذِي سُفِكَ فِيهَا إِلاَّ بِدَمِ سَافِكِهِ، وَلاَ تُنَجِّسُوا الأَرْضَ الَّتِي أَنْتُمْ مُقِيمُونَ فِيهَا الَّتِي أَنَا سَاكِنٌ فِي وَسَطِهَا.	35-34	90
تثنية	3	لاَ تَأْكُلْ رِجْسًا مَا. هذِهِ هِيَ الْبَهَائِمُ الَّتِي تَأْكُلُونَهَا. الْبَقَرُ وَالضَّأْنُ وَالْمَاعِزُ وَالأَيِّلُ وَالظَّبْيُ وَالْيَحْمُورُ وَالْوَعِلُ وَالتَّيْتَلُ وَالْمَهَاةُ وَكُلُّ بَهِيمَةٍ مِنَ الْبَهَائِمِ تَشُقُّ ظِلْفًا وَتَقْسِمُهُ ظِلْفَيْنِ وَتَجْتَرُّ فِي الْبَهَائِمِ تَأْكُلُونَ.	16-14	85
	10	فَاخْتِنُوا غُلْفَ قُلُوبِكُمْ وَلاَ تُقَسُّوا رِقَابَكُمْ بَعْدُ الْيَوْمَ.	16	45

اللاويون	15	وَإِذَا كَانَتْ امْرَأَةٌ يَسِيلُ سَيْلُ دَمِهَا أَيَّامًا كَثِيرَةً فِي غَيْرِ وَقْتِ طَمْثِهَا أَوْ إِذَا سَالَ بَعْدَ طَمْثِهَا فَتَكُونُ كُلُّ أَيَّامِ سَيَلاَنِ نَجَاسَتِهَا كَمَا فِي أَيَّامِ طَمْثِهَا [. . .] وَإِذَا طَهُرَتْ مِنْ سَيْلِهَا تَحْسِبُ لِنَفْسِهَا سَبْعَةَ أَيَّامٍ ثُمَّ تَطْهُرُ.	28-25	101
	17	هَذَا هُوَ عَهْدِي الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ وَبَيْنَ ذُرِّيَّتِكَ مِنْ بَعْدِي الَّذِي عَلَيْكُمْ أَنْ تَحْفَظُوهُ أَنْ يُخْتَتَنَ كُلُّ ذَكَرٍ مِنْكُمْ... يُخْتَتَنُونَ عَلَى مَدَى أَجْيَالِكُمْ.	12-9	50
	17	وَكُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ وَمِنَ الغُرَبَاءِ النَّازِلِينَ فِي وَسَطِهِمْ يَأْكُلُ دَمًا أَجْعَلُ وَجْهِي ضِدَّ النَّفْسِ الآكِلَةِ الدَّمِ وَأَقْطَعُهَا مِنْ شَعْبِهَا.	10	86
	17	الحَيَاةُ هِيَ فِي الدَّمِ.	11	74
	17	لأَنَّ نَفْسَ الجَسَدِ هِيَ فِي الدَّمِ فَأَنَا أَعْطَيْتُكُمْ إِيَّاهُ عَلَى المَذْبَحِ لِلتَّكْفِيرِ عَنْ نُفُوسِكُمْ لأَنَّ الدَّمَ يُكَفِّرُ عَنِ النَّفْسِ.	11	148
	17	لأَنَّ نَفْسَ الجَسَدِ فِي الدَّمِ، فَأَنَا أَعْطَيْتُكُمْ إِيَّاهُ عَلَى المَذْبَحِ لِلتَّكْفِيرِ عَنْ نُفُوسِكُمْ لأَنَّ الدَّمَ يُكَفِّرُ عَنِ النَّفْسِ.	11	118

راعوث	2	الْخُبْزُ وَالْخَلُّ.	14	72
الملوك الثاني	3	وَبَكَّرُوا صَبَاحًا عَلَى الْمِيَاهِ وَرَأَى الْمُوآبِيُّونَ مُقَابِلَهُمُ الْمِيَاهَ حَمْرَاءَ كَالدَّمِ.	22	143
	3	فَقَالُوا: هَذَا دَمٌ قَدْ تَحَارَبَ الْمُلُوكُ وَضَرَبَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَالآنَ فَإِلَى النَّهْبِ يَا مُوآبُ.	23	143
المكابيون الثاني	8	اسْتِعْدَادًا لِلْمَوْتِ فِي سَبِيلِ الشَّرِيعَةِ.	21	79
أيوب	19	وَبَعْدَ أَنْ يَفْنَى جِلْدِي هَذَا وَبِدُونِ جَسَدِي أَرَى اللهَ.	62	82
المزامير	17	لَيْسَ إِلَهَ أَمْوَاتٍ بَلْ إِلَهُ أَحْيَاءٍ.	15	82
	51	هَا أَنَا ذَا بِالإِثْمِ صُوِّرْتُ وَبِالْخَطِيئَةِ حَبِلَتْ بِي أُمِّي.	5	104
	55	رِجَالُ الدِّمَاءِ وَالْغِشِّ.	23	127
	79	سَفَكُوا دَمَهُمْ كَالْمَاءِ حَوْلَ أُورُشَلِيمَ وَلَيْسَ مَنْ يَدْفِنُ.	3	139
	95	الرَّبُّ يَهْوَهُ إِلَهٌ عَظِيمٌ مَلِكٌ كَبِيرٌ عَلَى كُلِّ الآلِهَةِ.	5-3	132
	97	عَلَوْتَ جِدًّا أَيُّهَا الرَّبُّ يَهْوَهُ عَلَى كُلِّ الآلِهَةِ.	5-3	134
	106	وَأَهْرَقُوا دَمًا زَكِيًّا، دَمَ بَنِيهِمْ وَبَنَاتِهِمُ الَّذِينَ ذَبَحُوهُمْ لأَصْنَامِ كَنْعَانَ وَتَدَنَّسَتِ الأَرْضُ بِالدِّمَاءِ.	3	127

التثنية	12	لَكِنِ احْتَرِزْ أَنْ لاَ تَأْكُلَ الدَّمَ لأَنَّ الدَّمَ هُوَ النَّفْسُ فَلاَ تَأْكُلِ النَّفْسَ مَعَ اللَّحْمِ.	23	118
	12	لَكِنِ احْتَرِزْ أَنْ تَأْكُلَ الدَّمَ لأَنَّ الدَّمَ هُوَ النَّفْسُ فَلاَ تَأْكُلِ النَّفْسَ مَعَ اللَّحْمِ.	23	148
	19	وَإِنْ أَوْسَعَ الرَّبُّ إِلهُكَ تُخُومَكَ كَمَا حَلَفَ لآبَائِكَ وَأَعْطَاكَ جَمِيعَ الأَرْضِ الَّتِي قَالَ إِنَّهُ يُعْطِي لآبَائِكَ إِذَا حَفِظْتَ كُلَّ هَذِهِ الْوَصَايَا لِتَعْمَلَهَا كَمَا أَنَا أُوصِيكَ الْيَوْمَ لِتُحِبَّ الرَّبَّ إِلهَكَ وَتَسْلُكَ فِي طُرُقِهِ كُلَّ الأَيَّامِ فَزِدْ لِنَفْسِكَ أَيْضًا ثَلاَثَ مُدُنٍ عَلَى هَذِهِ الثَّلاَثِ حَتَّى لاَ يُسْفَكَ دَمُ بَرِيءٍ فِي وَسَطِ أَرْضِكَ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَصِيبًا فَيَكُونَ عَلَيْكَ دَمٌ.	10-8	91
	32	وَتُبُوسٌ مَعَ ذَبِيحِ لُبِّ الْحِنْطَةِ وَدَمُ الْعِنَبِ شَرِبْتَهُ خَمْرًا.	14	146
يشوع	1	وَاثْقُبْ عَلَى تَرْدِيدِ كَلِمَاتِ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ وَتَأَمَّلْ فِيهَا لَيْلَ نَهَارَ لِتُمَارِسَهَا بِجِرْصٍ بِمُوجِبِ مَا وَرَدَ فِيهَا فَبِحَالِفَكَ النَّجَاحُ وَالتَّوْفِيقُ.	8	125
	24	فَالآنَ انْزِعُوا الآلِهَةَ الْغَرِيبَةَ الَّتِي وَسَطَكُمْ وَأَمِيلُوا قُلُوبَكُمْ إِنَى الرَّبِّ إِلهِ إِسْرَائِيلَ.	23	131

يوئيل	2	تتحوّلُ الشمسُ إلى ظلمةٍ والقمرُ إلى دمٍ قبلَ أنْ يجيءَ يومُ الربِّ العظيمِ المَخُوف.	3	143
ميخا	4	قُومي ودُوسي يا بنتَ صهيونَ لأني أجعلُ قرنَكِ حديدًا وأظلافَكِ أجعلُها نحاسًا فتسحقينَ شعوبًا كثيرةً أُحرِّمُ غنيمتَهُم للربِّ وثروتَهُم لسيّدِ كلِّ الأرض.	14-12	130
صفنيا	1	وأُضايقُ الناسَ فيمشونَ كالعُمْي لأنّهم أخطؤوا إلى الربِّ فيُسفَحُ دمُهُم كالتراب ولحمُهُم كالجِلَّة.	17	139

ب- آيات العهد الجديد

الإنجيل	الأصحاح	الآيات	رقمها	الصفحة
إنجيل متّى	1	لا تخافوا من الذين يقتلونَ الجسدَ ولكنّ النفسَ لا يقدرونَ أنْ يقتلوها بل خافوا بالحَريّ من الذي يقدِرُ أنْ يُهلِكَ النفسَ والجسدَ كليهما في جهنّم.	34	130
	3	الذين يبنون صهيونَ بالدماء.	10	152
	5	ولا تظنّوا أني جئتُ لأبطلَ الشريعةَ أو الأنبياء، ما جئتُ لأبطلَ بل لأكمّل.	17	47

الأمثال	1	لأَنَّ أَرْجُلَهُمْ تَجْرِي إِلَى الشَّرِّ وَتُسْرِعُ إِلَى سَفْكِ الدِّمَاءِ.	16	128
	12	كَلاَمُ الأَشْرَارِ كُمُونٌ لِلدَّمِ أَمَّا فَمُ الْمُسْتَقِيمِينَ فَيُنَجِّيهِمْ.	6	146
إشعياء	26	تَحْيَا أَمْوَاتُكَ، تَقُومُ الْجُثَثُ، اسْتَيْقِظُوا، تَرَنَّمُوا يَا سُكَّانَ التُّرَابِ.	19	83
	36	حَتَّى آتِيَ وَآخُذَكُمْ إِلَى أَرْضٍ مِثْلِ أَرْضِكُمْ أَرْضِ حِنْطَةٍ وَخَمْرٍ أَرْضِ خُبْزٍ وَكُرُومٍ.	9	72
	49	وَأُطْعِمُ ظَالِمِيكِ لَحْمَ أَنْفُسِهِمْ وَيَسْكَرُونَ بِدَمِهِمْ كَمَا مِنْ سُلاَفٍ.	26	147
إرميا	3	حَقًّا إِنَّهُ كَمَا تَخُونُ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا هَكَذَا خُنْتُمُونِي يَا بَيْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ.	20	134
	4	اخْتَتِنُوا لِلرَّبِّ وَأَزِيلُوا غُلَفَ قُلُوبِكُمْ يَا رِجَالَ يَهُوذَا وَسُكَّانَ أُورُشَلِيمَ.	4	52
	31	يَجْرُونَ إِلَى جُودِ الرَّبِّ عَلَى الْحِنْطَةِ وَعَلَى الْخَمْرِ.	12	72
	48	مَلْعُونٌ مَنْ يَمْنَعُ سَيْفَهُ عَنِ الدِّمَاءِ.	10	150
حزقيال	35	وَتَأْكُلُونَ الشَّحْمَ إِلَى الشِّبَعِ وَتَشْرَبُونَ الدَّمَ إِلَى السُّكْرِ مِنْ ذَبِيحَتِي الَّتِي ذَبَحْتُهَا لَكُمْ.	19	147
	44	لِيُقَرِّبُوا لِيَ الشَّحْمَ وَالدَّمَ.	15	116

إنجيل متى	26	اشْرَبُوا مِنْهُ كُلُّكُمْ لأَنَّ هَذَا هُوَ	38	73
		ذَمِي.		
	26	وَإِذَا وَاحِدٌ مِنَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ يَسُوعَ	51	129
		قَدْ مَدَّ يَدَهُ وَاسْتَلَّ سَيْفَهُ وَضَرَبَ عَبْدَ		
		رَئِيسِ الْكَهَنَةِ فَقَطَعَ أُذُنَهُ.		
	32	إِنِّي أَقُولُ لَكُمْ إِنَّكُمْ لاَ تَرَوْنَنِي مِنَ	39	70
		الآنَ حَتَّى تَقُولُوا: مُبَارَكٌ الآتِي بِاسْمِ		
		الرَّبِّ. ثُمَّ خَرَجَ يَسُوعُ مِنَ الْهَيْكَلِ.		
	46	إِلهِي إِلهِي لِمَاذَا تَرَكْتَنِي (إِيلِي إِيلِي	27	73
		لَمَا شَبَقْتَنِي).		
إنجيل مرقس	14	ثُمَّ أَخَذَ الْكَأْسَ وَشَكَرَ وَأَعْطَاهُمْ	24-23	73،
		فَشَرِبُوا مِنْهَا كُلُّهُمْ وَقَالَ لَهُمْ: هَذَا		76
		هُوَ دَمِي الَّذِي لِلْعَهْدِ الْجَدِيدِ الَّذِي		
		يُسْفَكُ مِنْ أَجْلِ كَثِيرِينَ.		
إنجيل لوقا	1	وَفِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ جَاؤُوا لِيَخْتِنُوا	60-59	46
		الطِّفْلَ وَسَمَّوْهُ زَكَرِيَّا عَلَى اسْمِ أَبِيهِ،		
		فَأَجَابَتْ أُمُّهُ وَقَالَتْ: لاَ بَلْ يُسَمَّى		
		يُوحَنَّا.		
	2	وَلَمَّا بَلَغَ الطِّفْلُ يَوْمَهُ الثَّامِنَ وَهُوَ	21	46
		الْيَوْمُ الَّذِي يَنْبَغِي فِيهِ خِتَانُهُ دَعَا اسْمَهُ		
		يَسُوعَ.		
	11	حَتَّى يُطَالَبَ هَذَا الْجِيلُ بِدَمِ جَمِيعِ	50	150
		الأَنْبِيَاءِ الَّذِي سُفِكَ مُنْذُ إِنْشَاءِ		
		الْعَالَمِ.		
	22	اصْنَعُوا هَذَا لِذِكْرِي.	19	71

إنجيل متى	5	قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقُدَمَاءِ: لاَ تَقْتُلْ وَمَنْ قَتَلَ يَكُونُ مُسْتَوْجِبًا لِلْحُكْمِ، وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ يَغْضَبُ عَلَى أَخِيهِ بَاطِلاً يَكُونُ مُسْتَوْجِبًا لِلْحُكْمِ.	21-24	94
	5	لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّلَ فَإِنِّي الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ لَنْ تَزُولَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ لاَ يَزُولُ حَرْفٌ وَاحِدٌ أَوْ نُقْطَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ النَّامُوسِ حَتَّى يَكُونَ الْكُلُّ.	17-18	128
	10	لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا عَلَى الأَرْضِ، مَا جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا بَلْ سَيْفًا.	34	150
	19	لاَ تَقْتُلْ، لاَ تَزْنِ، لاَ تَسْرِقْ، لاَ تَشْهَدْ بِالزُّورِ، أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ وَأَحِبَّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ.	8-10	94
	19	فَاذْهَبُوا الآنَ وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الأُمَمِ وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الأَبِ وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ.	28	115
	23	لِكَيْ يَأْتِيَ عَلَيْكُمْ كُلُّ دَمٍ زَكِيٍّ يُسْفَكُ عَلَى الأَرْضِ مِنْ دَمِ هَابِيلَ الصِّدِّيقِ إِلَى دَمِ زَكَرِيَّا بْنِ بَرَخِيَا الَّذِي قَتَلْتُمُوهُ بَيْنَ الْهَيْكَلِ وَالْمَذْبَحِ.	35	150

إنجيل يوحنا	19	لِكَيْ وَاحِدًا مِنَ الْجُنُودِ طَعَنَهُ بِحَرْبَةٍ فِي جَنْبِهِ فَخَرَجَ لِوَقْتِهِ دَمٌ وَمَاءٌ وَالَّذِي رَأَى شَهِدَ وَشَهَادَتُهُ حَقٌّ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ لِتُؤْمِنُوا أَنْتُمْ.	34-35	145
أعمال الرسل	2	تَتَحَوَّلُ الشَّمْسُ إِلَى ظُلْمَةٍ وَالْقَمَرُ إِلَى دَمٍ قَبْلَ أَنْ يَجِيءَ يَوْمُ الرَّبِّ الْعَظِيمِ الشَّهِيرِ.	2	144
	2	كَسْرِ الْخُبْزِ.	?	71
	13	فَطَلَبَ إِلَيْهِ صَمُوئِيلُ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَنْ يُوَلِّيَ عَلَيْهِمْ مَلِكًا فَأَقَامَ اللهُ عَلَيْهِمْ شَاوُلَ بْنَ قِيسٍ، ثُمَّ عَزَلَهُ اللهُ.	21-22	151
	15	إِنْ لَمْ تَخْتَتِنُوا حَسَبَ عَادَةِ مُوسَى، لاَ يُمْكِنُكُمْ أَنْ تَخْلُصُوا.	1	47
	15	لأَنَّهُ قَدْ رَأَى الرُّوحُ الْقُدُسُ وَنَحْنُ أَلاَّ نَضَعَ عَلَيْكُمْ ثِقْلاً أَكْثَرَ غَيْرَ هَذِهِ الأَشْيَاءِ الْوَاجِبَةِ، أَنْ تَمْتَنِعُوا عَمَّا ذُبِحَ لِلأَصْنَامِ وَعَنِ الدَّمِ وَالْمَخْنُوقِ وَالزِّنَا الَّتِي إِنْ حَفِظْتُمْ أَنْفُسَكُمْ مِنْهَا فَبِنِعْمَ تَفْعَلُونَ، كُونُوا مُعَافِينَ.	28-30	48
	17	إِنَّ اللهَ خَلَقَ مِنْ دَمٍ وَاحِدٍ كُلَّ أُمَّةٍ	26	69
	22	فَقُلْتُ يَا رَبُّ يَعْلَمُونَ أَنِّي كُنْتُ أَحْبِسُ وَأَضْرِبُ فِي كُلِّ مَجْمَعٍ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِكَ وَحِينَ سُفِكَ دَمُ اسْتِيفَانُوسَ شَهِيدِكَ كُنْتُ أَنَا وَاقِفًا وَرَاضِيًا بِقَتْلِهِ.	19	77

إنجيل يوحنا	1	وَفِي الْغَدِ نَظَرَ يُوحَنَّا يَسُوعَ مُقْبِلاً إِلَيْهِ فَقَالَ: هُوَ ذَا حَمَلُ اللهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيَّةَ الْعَالَمِ.	29	70
	3	هَكَذَا أَحَبَّ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ.	16	74
	5	اللَّذِينَ يَشْهَدُونَ فِي الأَرْضِ ثَلاَثَةٌ: الرُّوحُ وَالْمَاءُ وَالدَّمُ، وَالثَّلاَثَةُ هُمْ وَاحِدٌ.	8	51
	6	وَلَمَّا فَتَحَ الْخَتْمَ الْخَامِسَ رَأَيْتُ تَحْتَ الْمَذْبَحِ نُفُوسَ الَّذِينَ قُتِلُوا مِنْ أَجْلِ كَلِمَةِ اللهِ وَمِنْ أَجْلِ الشَّهَادَةِ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَهُمْ.	9	78
	7	فَإِنْ كَانَ الإِنْسَانُ يَقْبَلُ الْخِتَانَ فِي السَّبْتِ لِئَلاَّ يُنْقَضَ نَامُوسُ مُوسَى، أَفَتَسْخَطُونَ عَلَيَّ لأَنِّي شَفَيْتُ إِنْسَانًا كُلَّهُ فِي السَّبْتِ.	23	47
	8	أَنْتُمْ مِنْ أَبٍ هُوَ إِبْلِيسُ وَشَهَوَاتِ أَبِيكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَعْمَلُوا.	44	151
	16	الْمَرْأَةُ وَهِيَ تَلِدُ تَحْزَنُ لأَنَّ سَاعَتَهَا قَدْ جَاءَتْ وَلَكِنْ مَتَى وَلَدَتِ الطِّفْلَ لاَ تَعُودُ تَذْكُرُ الشِّدَّةَ بِسَبَبِ الْفَرَحِ لأَنَّهُ قَدْ وُلِدَ إِنْسَانٌ فِي الْعَالَمِ.	21	103
	17	وَرَأَيْتُ الْمَرْأَةَ سَكْرَى مِنْ دَمِ الْقِدِّيسِينَ وَمِنْ دَمِ شُهَدَاءِ يَسُوعَ.	6	77

الرسالة إلى أهل غلاطية	5	فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ لاَ قِيمَةَ لِلْخِتَانِ وَلاَ لِلْغُلْفِ وَإِنَّمَا الْقِيمَةُ لِلإِيمَانِ الْعَامِلِ بِالْمَحَبَّةِ.	6	49
رسالة بولس الأولى إلى تيماثاوس	2	وَلَكِنَّهَا سَتَخْلُصُ بِوِلاَدَةِ الأَوْلاَدِ إِنْ ثَبَتْنَ بِالإِيمَانِ وَالْمَحَبَّةِ وَالْقَدَاسَةِ مَعَ التَّعَقُّلِ.	15	101
الرسالة إلى العبرانيين	9	لأَنَّ مُوسَى أَخَذَ دَمَ الْعُجُولِ، وَالتُّيُوسِ وَرَشَّ الْكِتَابَ نَفْسَهُ وَجَمِيعَ الشَّعْبِ قَائِلاً: هذَا هُوَ دَمُ الْعَهْدِ الَّذِي أَوْصَاكُمْ بِهِ.	20-19	75
	11	بِالإِيمَانِ سَقَطَ سُورُ أَرِيحَا بَعْدَ الطَّوَافِ بِهِ سَبْعَةَ أَيَّامٍ بِالإِيمَانِ لَمْ تَهْلَكْ رَاحَابُ الْبَغِيُّ مَعَ الْكَفَرَةِ لأَنَّهَا قَبِلَتِ الْجَاسُوسَيْنِ بِسَلاَمٍ.	31-30	151
رسالة يعقوب	2	لأَنَّ الَّذِي قَالَ لاَ تَزْنِ قَالَ: لاَ تَقْتُلْ، فَإِنْ لَمْ تَزْنِ وَلكِنْ قَتَلْتَ فَقَدْ صِرْتَ مُتَعَدِّيًا النَّامُوسَ.	12-10	95
	2	إِنَّ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ مِثْلَ هذِهِ الأُمُورِ لاَ يَرِثُونَ مَلَكُوتَ اللهِ.	20-18	95
رؤيا يوحنا	6	وَنَظَرْتُ لَمَّا فَتَحَ الْخَتْمَ السَّادِسَ وَإِذَا زَلْزَلَةٌ عَظِيمَةٌ حَدَثَتْ وَالشَّمْسُ صَارَتْ سَوْدَاءَ كَمَسْحٍ مِنْ شَعْرٍ وَالْقَمَرُ صَارَ كَالدَّمِ.	12	144

رسائل القديس بولس	7	لَيْسَ الخِتَانُ بِشَيْءٍ وَلاَ الخُلْفُ بِشَيْءٍ بَلِ الشَّيْءُ هُوَ حِفْظُ وَصَايَا اللهِ.	19	51
الرسالة إلى أهل رومية	2	الخِتَانُ خِتَانُ القَلْبِ العَائِدِ إِلَى الرُّوحِ لاَ إِلَى حَرْفِ الشَّرِيعَةِ.	29	49
	3	بِإِنْسَانٍ وَاحِدٍ دَخَلَتْ الخَطِيئَةُ إِلَى العَالَمِ وَالمَوْتُ نَتِيجَةُ تِلْكَ الخَطِيئَةِ اجْتَازَ إِلَى كُلِّ البَشَرِ.	12	63
	3	الإِيمَانُ بِيَسُوعَ المَسِيحِ.	22	68
	3	الإِيمَانُ بِدَمِهِ.	25	68
	6	إِنَّ الخَطِيئَةَ لَنْ تَسُودَكُمْ لأَنَّكُمْ لَسْتُمْ تَحْتَ الشَّرِيعَةِ بَلْ أَنْتُمْ تَحْتَ العِنَايَةِ.	14	75
الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس	5	الأَشْيَاءُ العَتِيقَةُ قَدْ مَضَتْ هُوَ ذَا الكُلُّ قَدْ صَارَ جَدِيدًا.	19-17	74
الرسالة إلى أهل غلاطية	2	إِذْ نَعْلَمُ أَنَّ الإِنْسَانَ لاَ يَتَبَرَّرُ بِأَعْمَالِ النَّامُوسِ لأَنَّهُ بِأَعْمَالِ النَّامُوسِ لاَ يَتَبَرَّرُ جَسَدٌ مَا.	16	129
	3	لأَنَّ جَمِيعَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَعْمَالِ النَّامُوسِ هُمْ تَحْتَ لَعْنَةٍ لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ مَلْعُونٌ كُلُّ مَنْ لاَ يَثْبُتُ فِي جَمِيعِ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي كِتَابِ النَّامُوسِ لِيَعْمَلَ بِهِ.	10	129

2- فهرس آيات القرآن

السورة	رقمها	الآيات	رقمها	الصفحة
البقرة	2	﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ • ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾.	84-85	135
		﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾.	30	52
		﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.	88	140
		﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾.	154	81
		﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.	173	138

رؤيـــا يوحنا	7	فَقُلْتُ لَهُ يَا سَيِّدِي أَنْتَ تَعْلَمُ. فَقَالَ لِي: هَؤُلاَءِ هُمُ الَّذِينَ أَتَوْا مِنَ الضِّيقَةِ الْعَظِيمَةِ وَقَدْ غَسَلُوا ثِيَابَهُمْ وَبَيَّضُوا ثِيَابَهُمْ فِي دَمِ الْخَرُوفِ.	14	122
	8	ثُمَّ بَوَّقَ الْمَلاَكُ الثَّانِي فَكَأَنَّ جَبَلاً عَظِيمًا مُتَّقِدًا بِالنَّارِ أُلْقِيَ إِلَى الْبَحْرِ فَصَارَ ثُلُثُ الْبَحْرِ دَمًا.	12	144
	12	وَهُمْ غَلَبُوهُ بِدَمِ الْخَرُوفِ وَبِكَلِمَةِ شَهَادَتِهِمْ وَلَمْ يُحِبُّوا حَيَاتَهُمْ حَتَّى الْمَمَاتِ.	11	122
	14	خَافُوا اللهَ وَأَعْطُوهُ مَجْدًا لأَنَّهُ قَدْ جَاءَتْ سَاعَةُ دَيْنُونَتِهِ.	7	131
	16	ثُمَّ سَكَبَ الْمَلاَكُ الثَّانِي جَامَهُ عَلَى الْبَحْرِ فَصَارَ دَمًا كَدَمِ مَيِّتٍ وَكُلُّ نَفْسٍ حَيَّةٍ مَاتَتْ فِي الْبَحْرِ.	3	144
	16	ثُمَّ سَكَبَ الْمَلاَكُ الثَّالِثُ جَامَهُ عَلَى الأَنْهَارِ وَعَلَى يَنَابِيعِ الْمِيَاهِ فَصَارَتْ دَمًا.	4	144
	17	هَؤُلاَءِ سَيُحَارِبُونَ الْخَرُوفَ وَالْخَرُوفُ يَغْلِبُهُمْ لأَنَّهُ رَبُّ الأَرْبَابِ وَمَلِكُ الْمُلُوكِ وَالَّذِينَ مَعَهُ مَدْعُوُّونَ وَمُخْتَارُونَ وَمُؤْمِنُونَ.	11	123

المائدة	5	﴿لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.	28	88
		﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.	30	97
		﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾.	32	88، 96
		﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ﴾.	45	87
		﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾.	110	66
الأنعام	6	﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾	38	52
		﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.	145	86
الأعراف	?	﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.	133	153

البقرة	2	﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾.	222	99
آل عمران	3	﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾.	19	131
		﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.	169	81
النساء	4	﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾.	91	96
		﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾.	92	95
		﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.	155	52
المائدة	5	﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾.	3	85، 1:9

القصص	28	﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.	70	115
الرّوم	30	﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾.	30	53
الصافات	37	﴿يَٰبُنَىَّ إِنِّى أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾.	102	26
		﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾.	107	35
الشورى	42	﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.	11	124
الحشر	60	﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.	4	53
		﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾.	23	66
الانفطار	82	﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾.	8	126
الشمس	91	﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾.	15–11	34
الكوثر	108	﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾.	2–1	17، 27
الإخلاص	112	﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.	4–1	134

الأنفال	8	﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾.	9	131
يوسف	12	﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾.	18	152
النحل	16	﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾.	66	140
		﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.	123	53
الإسراء	17	﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾.	33	96
مريم	19	﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾.	30	124
الأنبياء	21	﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾.	30	119
الحج	22	﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾.	32	32
		﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾.	36	32
		﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾.	37	59
		﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.	39	130

فهرس الأعلام

اسم العلم	رقم الصفحة
أبرام،	25، 26، 29، 30، 32، 35، 42، 43، 45، 49، 127
إبراهيم،	25، 28، 29، 33، 53، 55، 127، 155، 168، 187
إبليس،	89، 141، 151، 178
ابن قيم الجوزية،	40، 55، 56
آدم،	21، 68، 69، 75، 89، 98، 103، 134، 140
إرميا،	52، 72، 134، 150، 174
أستير،	92، 93
إسحاق،	127، 168
إسرائيل،	34، 49، 78، 86، 128، 130، 131، 151، 152، 170، 172
الإسرائيليون،	121
إشعياء،	44، 72، 83، 91، 147، 148، 158، 174
الأنبا فريقوريس،	48
أندري دوما،	65
أندري ميكان،	123
إيزاناجي،	137
إيزانامي،	137
إيل،	121، 137
إيميل دوركهايم،	67، 133

فرعون، 73، 139، 153، 155
فيلقوس، 152
قابيل، 21، 88، 89، 92، 135، 139، 149، 158
كرل بروكنمان، 114، 156
كلود ليفي شتراوس، 33
الكنعانيون، 114، 121، 127
لابان، 31
اللاويون، 37، 38، 50، 74، 86، 99، 101، [illegible]، 118، 148، 168، 171
لوقا، 46، 47، 71، 72، 74، [illegible]، 17[illegible]
متى، 47، 70، 73، 94، 115، [illegible]، 150، 152
محمّد، 33، 59، 65، 100، [illegible]، 11[illegible]، 128، 142
مرسيا إلياد، 65، 143
مرقس، [illegible]، 146، 177
مريم، [illegible]، 124، 186
المسيح، 14، 22، 31، 46، 48، [illegible]، 59، [illegible]، 70، 71، 72، 74، 75، 79، 94، 103، 106، 124، [illegible]، 129، 130، 145، 146، 147، [illegible]، 180، 181
مكسيم رودنسون، 123
موسى، 21، 31، 32، 36، 43، 47، 49، 59، 68، 71، 75، 87، 90، 91، 106، 124، 129، 139، 145، 153، 154، 159، 178، 179، 181
نوح، 32، 34، 127
هابيل، 33، 88، 89، 135، 149، 150، 176
هامان، 93
هردويا، 152

ابو عبدو البغل

برادارد لازار، 136
بعل، 121
بعلبكي، 114
بني إسرائيل، 26، 27، 31، 32، 33، 35، 36، 37، 43، 46، 82، 86، 88، 91، 94، 96، 102، 118، 121، 125، 128، 134، 135، 150، 152، 153، 154، 155، 168، 169، 171، 174، 179، 185
بولس، 51، 68، 69، 77، 95، 103، 129، 151، 180، 181
تاموز، 74
تسكويومي، 137
حمورابي، 25، 87
حوّاء، 59، 84، 98، 103، 104
رَاحَابُ، 151، 181
الراغب الأصفهاني، 25
روني جيرار، 28، 133
زَكَرِيَّا، 47، 150، 176، 177
سميرنا، 137
سيغموند فرويد، 21، 36، 38، 134
الشافعي، 54
شاول، 151، 179
صالح، 34، 86، 154
صفورة، 44
الطبري، 81، 82، 84، 89، 93، 98
العبرانيّون، 25، 58، 76، 120، 121، 125، 127، 151، 181
عشتاروت، 74
عيسى، 46

قائمة المصادر والمراجع

1- المصادر

- القرآن الكريم، دار ابن كثير، ط 3، 1404هـ.
- الكتاب المقدّس، العهد القديم والعهد الجديد، منشورات دار المشرق، بيروت، ط 2، 2007.

2- المراجع

أ- المراجع العربية والمعرّبة

- ابن أبي زمنين (محمد بن عبد الله)، قدوة الغازي، تحقيق عائشة السليماني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1989.
- ابن أنس (مالك)، الموطأ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ط 4، 1414هـ.
- ابن حجر (أحمد بن علي)، فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري، إدارة البحوث العلمية، الرّياض، د.ت.
- ابن حزّي (محمد ابن أحمد)، قوانين الأحكام الشرعية، دار العلم للملايين، بيروت، 1979.
- ابن حنبل (أحمد بن محمد)، المسند، دار التراث العربي، بيروت، 1991.

هيرودس، 152
يحيى، 46، 120، 152، 153
يعقوب، 31، 49، 55، 95، 127، 152، 168، 181
يَهُوذَا، 52، 174
يوحنّا، 177، 178
يوحنا، 22، 46، 47، 49، 51، 70، 73، 74، 78، 81، 103، 144، 145، 146، 151
يوسف 64، 136، 139، 152، 186

- البخاري (محمد بن إسماعيل)، **صحيح البخاري**، دار القلم، بيروت، 1987.
- بروكلمان (كارل)، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1984.
- بودربار (جان)، **ذهنية الإرهاب، لماذا يقاتلون بموتهم؟**، ترجمة بسام حجّار، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – بيروت، 2003.
- بوعزة (علي السيد)، **المرأة في اليهودية والمسيحية والإسلام**، دار الوفاء، القاهرة ط 1، 2003.
- تركي (علي الربيعو)، **العنف والمقدّس والجنس في الميثولوجيا الإسلامية**، المركز الثقافي العربي، ط 1، 1994.
- تركي (علي الربيعو)، «حدود العلاقة بين الأسطورة والتاريخ في المصادر التاريخية الإسلامية»، **مجلّة الفكر العربي المعاصر**، العدد 76-77، 1990.
- الثعلبي (أبو إسحاق أحمد بن محمد النيسابوري)، **قصص الأنبياء المسمّى عرائس المجالس**، دار المعارف للنشر، سوسة، 1989.
- جرجي (كنعان)، **تاريخ يهود**، منشورات الدّار العربيّة للعلوم، بيروت، ط 2، 1994.
- جعيّط (هشام)، **في السيرة النبوية (2) تاريخية الدّعوة في مكّة**، دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، بيروت، ط 1، 2007.
- الجليدي (قيصر)، مقال: «العنف المقارنة الأنثروبولوجيّة»، **مجلّة كتابات معاصرة**، عدد 31، تمّوز/ آب، 1997.
- الجوهري (أبو العباس)، **الصّحاح**، تحقيق أحمد عبد الغفور العطّار، مطابع دار الكتاب العربي، مصر، د. ت.

- ابن عساكر (علي بن الحسن)، تبيين الامتنان بالأمر بالختان، تحقيق فتحي السيد، دار الصحابة للتراث، طنطا، 1989.
- ابن قيم الجوزية (شمس الدين)، تحفة المودود بأحكام المولود، دار الكتاب العربي، بيروت، 1997.
- ابن كثير (أبو الفداء اسماعيل)، تفسير القرآن، دار إحياء الكتب العربية، ج 2، د. ت.
- ابن منظور (أبو الفضل محمد بن مكرم)، لسان العرب، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1995.
- ابن هشام (محمد عبد الملك)، السيرة النبوية، مؤسسة المعارف، بيروت، 2007.
- ابن يحيى المغربي (السموأل)، بذل المجهود في إفحام اليهود وإظهار سرّ الدّم المكتوم، للحاخام ناوفيطوس اليهودي، دار بيبليون، باريس، 2005.
- أركون (محمد)، الفكر الإسلامي، قراءة علمية، ترجمة هاشم صالح، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1978.
- الأصفهاني (الراغب)، المفردات في غريب القرآن، دار الفيحاء للطباعة والنشر، تركيا، 1986.
- إلياد (مرسيا)، «بنية الأساطير»، ترجمة، محمد بشوتي، مجلة العرب والفكر العالمي، العدد 13-14، ربيع 1991.
- بارندي (جفري)، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة عبد الفتاح إمام، سلسلة عالم المعرفة، عدد 173، 1993.
- الباش (حسن)، القرآن والتوراة أين يتفقان وأين يفترقان؟، قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، د. ت.

- سبينوزا (باروخ)، **رسالة في اللاهوت والسياسة**، تعريب حسن حنفي وفؤاد زكريا، دار الطليعة، بيروت، ط 3، 1994.
- السعفي (وحيد)، **العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن**، دار تبر الزمان، تونس، 2000.
- سعيد (حبيب)، **أديان العالم**، دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية، القاهرة، د. ت.
- سيزا (قاسم)، **الهرمينوطيقا والتأويل**، دار قرطبة للطباعة والنشر، الدار البيضاء، ط 2، 1993.
- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمان)، **الدر المنثور في التفسير المأثور**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1990.
- شلبي (أحمد)، **مقارنة الأديان أديان الهند الكبرى**، دار النهضة، القاهرة، ط 8، 1989.
- شلحد (يوسف)، **بُنى المقدّس عند العرب قبل الإسلام وبعده**، تعريب خليل أحمد خليل، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط 1، 1996.
- الصبّاغ (عماد)، **الأحناف، دراسة في الفكر الديني التوحيدي في المنطقة العربية قبل الإسلام**، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق، ط 1، 1998.
- الصنعاني (عبد الله)، **تفسير القرآن، للإمام عبد الرزاق بن همّام**، تحقيق مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرّشد، الرّياض، د. ت.
- الطبري (أبو جعفر محمد بن جرجير)، **تاريخ الطبري المعروف بتاريخ الرسل والملوك**، تقديم محمد أبي الفضل وتحقيقه، دار المعارف، مصر، ط 4، د. ت.

- الحاج حسن (حسين)، **الأسطورة عند العرب في الجاهلية**، المؤسسة الجامعية للدّراسات والنّشر والتّوزيع، بيروت، 1998.
- حلمي (مصطفى)، **الإسلام والأديان**، دراسة مقارنة، دار الدّعوة للطّبع والنّشر والتّوزيع، د. ت.
- حنبكه (عبد الرحمان)، **مكايد اليهود عبر التاريخ**، دار القلم، دمشق - بيروت، ط 2، 1978.
- دائرة المعارف الأمريكية، **موسوعة لكسيكون**، ط 3، 1963.
- داود (الأب جرجس)، **أديان العرب قبل الإسلام**، المؤسسة الجامعية للدّراسات، بيروت، 1984.
- الدردير (أحمد)، **الشّرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك**، دار المعارف، القاهرة، 1991.
- الذكالي (عبد العليّ)، «المقدّس المصطنع المفهوم»، **مجلّة الفكر العربي المعاصر**، 118-119، صيف 2001.
- ديورانت (وول)، **قصّة الحضارة**، ترجمة زكي نجيب محمود، دار الجيل، بيروت، 1988.
- الذّيب (سامي)، **مؤامرة الصّمت، ختان الذكور والإناث عند اليهود والمسيحيين والمسلمين، الجدل الدّيني الطبّي الاجتماعي القانوني**، الأوائل للنّشر والتّوزيع والخدمات الطّباعيّة، دمشق، ط 1، 2003.
- الزاهي (نور الدّين)، «المقدّس في الثّقافة العربيّة الإسلاميّة»، **مجلّة الفكر العربي المعاصر**، 108/109، شتاء 1999.
- سام (كلوسرتر)، «الاستشهاد عند اليهود والمسيحيين والمسلمين»، **مجلّة *IBLA***، عدد 196، سنة 1992.
- سامي (يحيى)، **الشّرك الجاهلي وآلهة العرب المعبودة قبل الإسلام**، دار الفكر العربي، 1986.

- القماطي (التيجاني)، مقال: «الإنسان والمقدّس»، من كتاب، **المقدّس والعنف**، دار محمّد علي الحامي، ط 1، 1994.
- الكليني (أبو جعفر محمد يعقوب)، **الأصول والفروع**، دار الكتب الإسلامية، طهران، 1968.
- لوران (شارل)، **الكنز المرصود في قواعد التلمود**، ترجمة يوسف حنّا نصر الله، كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، 2008.
- ليفي شتراوس (كلود)، **الفكر البرّي**، ترجمة نظير جاهل، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات، بيروت، 1984.
- مجموعة من الكهنة واللاهوتيين، **التلمود**، فصل المستهدرين، طبعة أمستردام، 1943.
- مجموعة من اللاهوتيين، **قاموس الكتاب المقدّس**، دار الثّقافة، القاهرة، ط 8، 1992.
- مجموعة من اللاهوتيين، **معجم اللاّهوت الكتابي**، دار المشرق، بيروت، ط 3، 1974.
- مرميون (دوم كلومبا)، **المسيح حياة القسّ**، ترجمة المطران نصر الله صفير، د. ت.
- المسعودي (حمادي)، **متخيل النصوص المقدّسة في التراث العربي الإسلامي**، دار المعرفة للنشر، ط 1، 2007.
- مسلم (مسلم بن الحجّاج)، **الجامع الصحيح**، دار المعرفة، بيروت، م 4، د. ت.
- ميديكو (دي)، **اللآلئ من النصوص الكنعانية**، ترجمة مفيد عرنوق، بيروت، 1980.
- وجدي (محمّد فريد)، **دائرة معارف القرن العشرين**، دار المعارف، بيروت، ط 3، 1971.

- الطبري (أبو جعفر محمد بن جرجير)، تفسير الطبري، المسمّى جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الكتب العلميّة، بيروت، م 12، 1992.
- عبد الحكيم (شوقي)، الفولكلور والأساطير العربيّة، دار ابن خلدون، بيروت، 1978.
- عبد الغني (عماد)، التلمود استكمال الأسطورة وتأصيل العنف، (كتاب إلكتروني) على موقع: http://www.waaraba.net/modules.php?name=News&file=article&sid=2044
- عطيّة (محمّد سالم)، موسوعة الدّماء في الإسلام، دار الجوهرة، ط 1، 1426هـ.
- العقاد (عبّاس محمود)، إبراهيم أبو الأنبياء، دار الهلال، د. ت.
- علي (جواد)، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ومكتبة النهضة، بغداد، ط 2، 1993.
- فرويد (سيغموند)، الطوطم والتابو، تعريب بوعلي ياسين، دار الحوار للنشر، ط 1، سورية، 1983.
- الفيروز أبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب)، القاموس المحيط، دار العلم للجميع، بيروت، د. ت.
- القانون العبري، المقارنات والمقابلات بين أحكام المرافعات والمعاملات والحدود في شرع اليهود، المطبعة الهنديّة، مصر، 1902.
- القرطبي (أبو عبد الله محمّد بن أحمد الأنصاري)، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتاب العربي، بيروت، د. ت.
- قريقوريس (الأنبا)، الختان في المسيحيّة، دار النشر للثقافة القبطيّة، د. ت.

- Foucault (Michel), *Les mots et les choses*, Gallimard, Paris, 1966.
- Girard (René), *Des choses cachées depuis la fondation du monde*, Grasset et Fasquelle, 1978.
- Girard (René), *La Violence et le sacré*, Éditions Bernard Grasset, 1972.
- Ricoeur (Paul), « Le conflit des herméneutiques : épistémologie ces interprétations », article in *Cahiers internationaux de symbolisme*, Paris, 1963.
- Thiollier (Marguerite-Marie), *Dictionnaire des religions*, Marabout, nouvelle édition, 1982.
- Vial (Jean-Louis), *Ignace d'Antioche, Eglise d'hier et d'aujourd'hui, Dictionnaire des religions*, Éditions ouvrières, Paris, 1956.
- Vincent, *Les Moriscos et la circoncision*, Publications de l'Institut Supérieur de Documentation, N°4, Tunis, 1984.
- *Vocabulaire de théologie biblique*, Les éditions du Cerf, Paris, 1994.

- وتر (ستيس)، فلسفة هيغل، فلسفة الروح، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير، بيروت، ط 3، 1983.
- اليعقوبي (أحمد بن يعقوب بن جعفر)، تاريخ اليعقوبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1999.
- يونغ (كارل توسناف)، الذين في ضوء علم النفس، ترجمة نهاد خياطه، العربي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط 1، 1988.

ب- المراجع الأعجمية

- Ayoub (Mahmoud), *Martyrdom in Christianity and Islam*, in newsletter, n°14, 1985.
- Bonsirven (Joseph), *Le judaïsme palestinien au temps de Jésus-Christ*, Bibliothèque de théologie historique, Paris, 1934.
- Bouhdiba (Abdelwahab), *La sexualité en Islam*, PUF, 1975.
- Bultmann (Rudolf), *Jésus: mythologie et démythologisation*. Seuil, Paris, 1968.
- De Beaghem (Abeth), *La Mythologie*, Marabout, France, 1978.
- Dumas (André), « Sacré », *Universalis*, corpus 20, Paris, 1996.
- Durkheim (Emile), *Les formes élémentaires de la vie religieuse*, 2ème édition, PUF, Paris, 1990.
- Dussaud (René), *Les origines cananéennes du sacrifice israélite*, Éditions Ernest Leroux, Paris, 1921.
- Eliade (Mircea), *Histoire des croyances et des idées religieuses*, Payot, Paris.
- Eliade (Mircea), *Images et symboles. Essais sur le symbolisme magico-religieux*, Gallimard, 1952.
- Eliade (Mircea), *Traité d'histoire des religions*, Payot, Paris, 1975.
- *Encyclopedia Britanica*, USA, 1976.
- Flori (Jean), *Guerre Sainte, Jihad, Croisade. Violence et religion dans le christianisme et l'islam*, Seuil, Paris, 2002.

الفهرس

مقدمة 9

الفصل الأوّل: الدّم المسفوح على عتبات المقدّس 17

مقدّمة الفصل 19

1- الدّم القرباني 20

أ- الدّم البشري 24

ب- الدّم الحيواني 30

2- دم الختان 39

أ- دم الختان في الفكر الدّيني اليهودي 41

ب- دم الختان في الفكر الدّيني المسيحي 46

ج- دم الختان في الفكر الدّيني الإسلامي 51

خاتمة الفصل 57

الفصل الثاني: ميثولوجيا الدّم: ثنائية القداسة والنّجاسة 61

مقدّمة الفصل 63

1- الدّم المقدّس 64

أ- هل بسفك الدّم تنجو وتخلص؟ 67

أبو عبدو البغل

ب- آيات العهد الجديد 175
2- فهرس آيات القرآن 183

فهرس الأعلام 189

قائمة المصادر والمراجع 193
1- المصادر 193
2- المراجع 193
أ- المراجع العربية والمعرّبة 193
ب- المراجع الأعجمية 200

ب- دم الشّهيد 76
2- الدّم النّجس 84
أ- الدّم الجريمة 88
ب- دم الحيض والاستحاضة والنّفاس 98
خاتمة الفصل 105

الفصل الثّالث: المحمولات الرّمزيّة للدّم في الدّيانات السماوية 109
مقدّمة الفصل 111
1- رمزيّة الصّورة الدّمويّة 112
أ- صورة الإله الدّموي 116
ب- صورة الشّعب الدّموي 126
2- في البدء كان الدّم 135
أ- حضارة الدّم ورهانات النصّ الدّيني 138
ب- الدّم وإيستيمولوجيّة العنف المقدّس 149
خاتمة الفصل 157

الخاتمة 161

فهرس الآيات 167
1- فهرس آيات الكتاب المقدّس 167
أ- آيات العهد القديم 167

حين جاءت الأديان السماوية تباعاً (اليهودية والمسيحية والإسلام) إلى حياة الإنسان واستقرت عقيدة إيمانية جلبت معها أنماطاً من الوسائط التي أسهمت في استبدال ممارسات الإنسان الدموية بمحاكاة أفعال أخرى تضمن فكرة الخلاص من الموت وتمنح الإنسان في ظل إيمانه حقه في الوجود، فكان الدم من جهة الفدية أو من جهة التكفير عن الذنب أوضح الشواهد دلالة على العطاء الذي لا يمكن لمؤمن مهما كان انتسابه الإيماني أن يأتي إلى حضرة القداسة دون أن يكون قد سفك إما دماً بشرياً أو دماً حيوانياً لينال «البر والتقوى» والخلاص.

وقد تكثف مفهوم الدم بما يحمله من إحالات شتى ورموز مختلفة من خلال حضوره في النصوص الدينية الثلاثة، العهد القديم والعهد الجديد والقرآن، بأشكال لغوية ودلالية متنوعة ومتباعدة فيما بينها بحسب الأنساق المعرفية التي وردت فيها.

يطرح هذا الكتاب موضوع الدم بالاعتماد على النصوص الدينية المقدسة وهو ما يستوجب النظر إلى هذه النصوص الثلاثة باعتبارها مصادر متباعدة زمنياً في أصل النشأة، ولكنها تنحدر من المشرب الإلهي نفسه وتتطلب مراعاة الفواصل التاريخية الفاصلة فيما بينها بثقلها الثقافي والحضاري دونما تغاضٍ عن خصوصية كل نص ديني يدعي النضج والاكتمال.

الأسعد العياري

باحث تونسي متخصص في علم الأديان

ISBN 978-

مؤمنون بلا حدود

Mominoun Without Borders

مؤسسة دراسات وأبحاث

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب: 4006 (سيدنا)

بيروت: ص. ب: 113/5158

markaz.casablanca@gmail.com

cca_casa_bey@yahoo.com

أبو عبدو البغل